University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal



جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الأربعون – 10/ يوليو (2018)

عوامل التطور العمراني لمدينة طرابلس الغرب خلال فترة حكم الاسرة القرمانلية (1711-1835م)

أ. مصطفى فرج علي البركي[1]، د. روزية صديق[2]، د. أزمول بن قمر الزمان.[3]

([1] عضو هيئة تدريس بقسم الآثار جامعة بنغازي وطالب دكتوراه بالجامعة الوطنية الماليزية. [2] عضو هيئة تدريس بالجامعة الوطنية الماليزية. [3] عضو هيئة تدريس بالجامعة الوطنية الماليزية)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal



جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الأربعون – 10/ يوليو (2018)

عوامل التطور العمراني لمدينة طرابلس الغرب خلال فترة حكم الاسرة القرمانلية (1711-1835م)

الملخص:

يقاس مدى ازدهار وتحضر المدن بمدى نمو وتطور عمرانها، ومن أجل ذلك نجد أن الحكام والملوك كانوا شديدي الحرص على الاهتمام بمدنهم لتظهر بأجمل منظر وأبهى حلة، لأن في عظمتها تخليداً لأسمائهم وتبجيلاً لذكراهم، بيد أن ذلك كان مقروناً ببعض الظروف التي كانت تعيشها المدن آنذاك وهو ما أصطلح على تسميته بعوامل التطور العمراني، ومن خلال هذا البحث سنتناول العوامل التي أثرت على مدينة طرابلس الغرب وتطور عمرانها خلال فترة حكم الاسرة القرمانلية (1711-1835م). وتهدف الدراسة إلى تتبع تلك العوامل ومدى تأثيرها على بنية المدينة وتطورها العمراني، سواءً أكان هذا التأثير إيجابياً أو سلبياً، وتكمن أهمية الدراسة في كون فكرتها لم تطبق على مدينة طرابلس من قبل على الرغم من تطبيقها على العديد من المدن العربية والإسلامية، ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة تستهدف فترة حكم الاسرة القرمانلية التي تعد من الفترات المهمة في تاريخ مدينة طرابلس لأن المدينة خلالها أضحت عاصمة لولاية مستقلة عن الدولة العثمانية بعدما كانت تابعة تبعية مباشرة للسلطان العثماني، وتكمن أهمية فترة القرمانليين أيضاً في توفر المعلومات عنها مقارنة بالفترات السابقة واللاحقة لها، وتعد هذه الدراسة جزءً من دراسة متكاملة تشمل تطور عمران مدينة طرابلس سيتم نشرها لاحقاً إن شاء الله.

الكلمات المفتاحية: التطور العمراني، طرابلس الغرب، المنشية، الاسرة القرمانلية، الاسطول الطرابلسي، القلعة.

Abstract

Good and beautiful buildings show how much the city is modern. And the greatness of these cities will connected to the kings names. That's why kings and leaders care about architecture of their cities. In this research we're going to study modern factors of Tripoli through the Qaramanly period 1711-1835.The aims of this research is to study the factors which affect the architecture and the development of buildings. It contains Studying the positive and the negative factors. The important of this study lie in applying this study to Tripoli which is a new idea. Similar study was applying on other Arabic and Islamic cities. On the other hand, this research aims to study Qaramanly period of ruling Tripoli. This period was very important because Tripoli city was the capital of independent state which was not followed the Qaramanly Sultan. The Ottoman period was important because there are a lot of available information about it. This study is a part of a complete study contains the architecture of Tripoli. It will be posted.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal



جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الأربعون – 10/ يوليو (2018)

- المقدمة:

يقصد بعوامل التطور العمراني تلك العوامل المؤثرة على الجانب المعماري لمدينة طرابلس، ودراستها للوقوف على مدى اسهامها في تطور عمران المدينة، ومعرفة التأثيرات الإيجابية والتأثيرات السلبية لتلك العوامل، ولتسهيل عملية الدراسة فقد تم تقسيم عوامل التطور العمراني لمدينة طرابلس إلى الاتي:

أولاً: العوامل الجغرافية. ومن أهم العوامل الجغرافية التي أثرت على مدينة طرابلس موقعها الجغرافي، حيث أنه هيأ لها الظروف التي جعلت منها حلقة وصل مهمة بين أسواق أوروبا والمواد الخام الإفريقية، وكذلك حلقة مهمة بين شرق العالم الإسلامي وغربه، وقد كان لهذا الموقع أثر إيجابي تمثل في انتعاش اقتصاد المدينة ونمو عمرانها، وأثر سلبي تمثل في أطماع الدول المختلفة للسيطرة عليها.

ثانياً: العوامل الاجتماعية. ومن أهم العوامل الاجتماعية التي أثرت على تطور عمران مدينة طرابلس تنوع طبقات سكانها، حيث أن المدينة سكنها المسلمين واليهود والنصارى، وقد أثر هذا بدوره على تنوع البيئة العمرانية للمدينة، فقد قسمت أحياء المدينة وفقاً لتلك التركيبة السكانية، فكانت هناك أحياء للمسلمين وأخرى لليهود وأخرى سكنتها الجاليات الأوروبية ذات الديانة المسيحية، وبذلك تنوعت دور العبادة من مساجد وكنائس ومعابد يهودية، وكذلك كان لكل طبقة مقبرتها الخاصة بها، وكذلك فقد تنوعت تصاميم المباني وزخارفها وفق ذوق وديانة كل طبقة.

ثالثا: العوامل السياسية والعسكرية. ويمكن أن نقتصر في هذا الجانب على الحوادث والفتن التي تعرضت لها مدينة طرابلس، والتي يقصد بها تلك النوازل التي حلت بالمدينة وأضرت بسكانها وعمرانها، مثل محاصرة بعض الاساطيل الأجنبية لها وضربها بالقنابل، إما لإرغام حكامها على الإذعان لمطالبهم وإما تأديبا لهم على ما اقترفته بحريتهم وبحارتهم في حق السفن التابعة لتلك الدول، أو المطالبة بإرجاع السفن المختطفة أو التعويض المالي عن ما لحق بتجارتهم وبضائعهم من أضرار، أو محاولات الانقلاب التي كان يقوم بها الجنود عادة لتغيير الحاكم وتنصيب أخر مكانه، أو الصراعات بين أفراد الأسرة القرمانلية للاستئثار بالحكم دون الاخرين، أو محاولة أطراف خارجية لتقويض حكم القرمانليين، ويندرج أيضا تحت الحوادث والفتن تلك المجاعات والاوبئة التي كانت تفتك بسكان المدينة بين الفينة والأخرى.

رابعاً: العوامل الاقتصادية. ويندرج تحت العوامل الاقتصادية التجارة والنشاط البحري للأسطول الليبي والمصادر المتنوعة للثروة في مدينة طرابلس، وقد كان لتلك العوامل مجتمعة خلق نوع من الثراء الذي طال جزء من فئات المجتمع الطرابلسي وقد انعكس هذا الثراء على عمران المدينة متمثلاً في بناء العديد من المنشآت العامة والخاصة سواءً كانت تلك العمائر ذات طابع ديني خيري مثل بناء بعض المساجد والمدارس والزوايا، أو ذات طابع مدني تجاري كبناء بعض الأسواق والفنادق والمحال التجارية بقصد تحقيق مزيداً من الربح.

أولاً: العوامل الجغرافية (الموقع الجغرافي للمدينة):

تتميز ليبيا بصفة عامة وطرابلس بصفة خاصة بموقع جغرافي ممتاز، وقد مكن ذلك الموقع طرابلس بان تتبوأ مركزاً مرموقاً في مجال التجارة الدولية، وكذلك جعل منها حلقة وصل مهمة بين دواخل إفريقيا ودول البحر المتوسط، بل أن طرابلس في الأصل كانت عبارة عن محطة تجارية استخدمها الفينيقيون لتوزيع تجارتهم وبضائعهم منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، ومن ثم تحولت إلى مدينة مزدهرة، غير أن ملامح طرابلس كمدينة فينيقية قد اختفت ولم يبق منها سوى أسمها التاريخي القديم (أويا) وقد استمرت أهمية طرابلس كمركز تجاري بعد سقوط قرطاجة وزوال الحضارة الفينيقية،

حيث ورث الرومان طرابلس كما ورثوا بقية أملاك الفينيقيين في القرن الثاني قبل الميلاد، حيث صبغت المدينة بالطابع الروماني، وأيضا لم يتبق من طرابلس الرومانية سوى قوس النصر الذي شيده الإمبراطور ماركس أوريليوس، ومن بعد الرومان خضعت طرابلس لغزو الوندال الذين سيطروا على منطقة شمال إفريقيا وإسبانيا، بيد أنهم لم يمكثوا طويلاً، حيث تم طردهم منها من قبل البيزنطيون الذين ضموا طرابلس إلى مملكتهم،[1] حيث طبعت المدينة بالطابع المسيحي، وقد أفلح البيزنطيون في حمل بعض سكانها على اعتناق الديانة المسيحية، فلعبت المدينة دوراً مهماً في الاحداث السياسية والدينية حيث صارت عاصمة للمنطقة بأكملها في القرن الرابع الميلادي، وقد ظلت كذلك حتى الفتح الإسلامي.

وعندما فتح المسلمون طرابلس بدأت مرحلة جديدة من تاريخ المدينة، حيث صبغت بالصبغة الإسلامية، وظهرت كقوى عظمى في حوص البحر المتوسط أكثر من ظهورها في الفترات السابقة لحكم المسلمين، حيث أضحت المدينة القاعدة الرئيسية ونقطة الانطلاق للفتوحات الإسلامية التي امتدت صوب إفريقيا وبلدان المغرب الإسلامي، وعلى الرغم من قلة المعلومات التي تتحدث عن طرابلس في عهودها السابقة للإسلام، إلا إننا نجد بعض المعلومات التي تذكر أهمية المدينة وازدهارها في العصر الإسلامي، حيث يذكر بعض المؤرخين مثل أبن حوقل أن المدينة كانت مركزاً مهماً للتجارة البحرية بين بلاد الروم والمغرب الإسلامي، وأن ميناؤها كانت زاخرة بحركة السفن التجارية التي تنقل البضائع المختلفة،[2] كما يذكر أخرون أن المدينة كانت حافلة بالأسواق الجامعة مثل ما كتبه البكري عنها حيث يقول: "أن بطرابلس أسواق حافلة جامعة ... وفيها رباطات يأوي اليها الصالحون"، ونلاحظ أن جل روايات المؤرخين تشهد لها بالعراقة والازدهار ضمن المدن الهامة على ساحل الشمال الافريقي، فقد جعلها كثير من الجغرافيين والرحالة العرب حداً فاصلاً تبتدأ به افريقية نحو الغرب، حيث اصطلحوا على تسمية المغرب الأدنى الذي يتألف من طرابلس وتونس بأفريقية، وسموا الجزائر بالمغرب الأوسط، وسموا المغرب بالمغرب الأقصى، وهكذا كانت طرابلس وفق ذلك التقسيم تعد الحد الفاصل بين المشرق والمغرب، وهذا ما جعلها تصبح مركزا تجاريا مهماً.[3]

كما كانت طرابلس أيضا بمثابة حلقة وصل مهمة بين مغرب العالم الإسلامي ومشرقة، حيث كان مينائها جسر عبور البضائع الإفريقية إلى أوروبا والعكس، وكذلك شكلت طرابلس محطة تجارية مهمة سهلت عملية التنقل سواء للأشخاص أو البضائع من مصر والشام والحجاز إلى تونس والجزائر والمغرب لاسيما قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام.[4]

وقد قدر عدد سكان طرابلس في العهد العثماني بحوالي ثلاثون ألف نسمة، وكانت مركزاً يقصده التجار من جميع أنحاء العالم، ففضلاً عن التجار الليبيين كان هناك تجار يهود وأجانب من جنسيات مختلفة، وقد بلغ هؤلاء التجار من الثراء لدرجة أن الباشوات القرمانليون كانوا يقترضون منهم الأموال عندما تضيق بهم الأحوال، وكانت طرابلس مركزا للوكلاء التجاريين من العرب والاوروبيون والأفارقة، ونظراً لكثافة الحركة التجارية بطرابلس فقد كانت هناك العديد من المشاكل والخصومات التجارية ولذلك أقيم بها أول محكمة تجارية عام 1851م[5].

---

[1] الدجاني، أحمد صدقي. ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1971م، ص24-25.
[2] ابن حوقل. صورة الأرض، نقلاً عن نجم، محمد يوسف. عباس، احسان. ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات. دار ليبيا للنشر والتوزيع. بنغازي. 1968. ص23.
3 التليسي، خليفة محمد. حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، طرابلس - تونس، 1997م، ص23.
4 بن موسى، تيسير. المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني. الدار العربية للكتاب. طرابلس. 1988م.ص157.
5 تيسير بن موسى. 1988م. ص170.

وقد زادت أهمية طرابلس تلك لاسيما أثناء فترة حكم الأسرة القرمانلية، حيث شكلت المدينة حلقة اتصال بين مدن وسط إفريقيا والمدن الأوروبية، فقد كانت طرق القوافل تربط طرابلس ووداي، وبرنو، وبقية مدن السودان عن طريق فزان وغدامس، حيث كانت تجارة هذه المدن تأتي إليها، وعبر مينائها تنقل بواسطة التجار العرب والأوروبيون إلى كافة المدن الأوروبية، كما يقوم تجار طرابلس وفزان بنقل بعض المصنوعات المحلية وجملة من البضائع التي تجلب من أوروبا لتباع في أسواق إفريقيا.[6]

وبقدر ما كان لموقع مدينة طرابلس من أهمية استراتيجية من الناحية التجارية والعسكرية، فقد كان ذلك الموقع وبالاً على سكانها وعلى تكوينها العمراني حيث جعلها ذلك الموقع عرضة لأطماع العديد من الدول الأجنبية للسيطرة عليها، وقد ترتب على ذلك ضياع الكثير من معالمها التاريخية والعمرانية، ومن خلال تتبع تاريخ طرابلس منذ أن فتحها عمرو بن العاص وحتى مجيء العثمانيين عام 1551م، نجد أنها كانت كلما خطت خطوة نحو التغيير أتى عليها الغزاة فقضوا على الكثير من نتاجها الحضري والمعماري،[7] فقد كانت طرابلس مسرحاً للصراعات، سواءً كانت تلك الصراعات من أجل تملكها من قبل الدول المسيحية، أو صراعات محلية بين بعض الحكام المسلمين الذين اقتطعوا أجزاءً من جسد الدولة الإسلامية وكونوا منها دولاً مستقلة، فقد أثر الصراع بين الفاطميين الشيعة وبني زيري السنة على عمران المدينة وتركيبتها السكانية فعندما أراد الخليفة الفاطمي القضاء على أسرة بني زيري حيث قام بحّث قبائل بني هلال وبني سليم على المهاجرة إلى المغرب بقصد القضاء على ملك المعز بن بلكين، وكان من النتائج السلبية لتلك الهجرات على طرابلس ما ذكرة المؤرخ الشريف الإدريسي الذي قال: "ان العرب (يقصد بني هلال وبني سليم) أضرت بالمدينة وبما كان حولها ... وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وغورت مياهها".[8]

ونتيجة للتوتر وحالة الضعف التي كانت تمر بها المنطقة فقد أصبحت طرابلس مطمعاً للدول المسيحية حيث غزاها الصقليون بقيادة ملكهم روجار وظلوا بها لأكثر من عشر سنوات (544-553هـ) وبعد ثورة محلية أطاحت بحكم الصقليين دخلت المدينة تحت حكم الموحدين، بيد أنها لم تلبث طويلاً، فدخلت تحت سيادة بني حفص، وتعد هذه المرحلة من الفترات المميزة لتاريخ طرابلس حيث شهدت البلاد نهضة عمرانية أستمر تأثيرها لفترة طويلة من الزمن، ومن أهم آثار تلك الفترة بناء المدرسة المنتصرية وقصر الطارمة الذي شيده عبدالواحد بن أبو يحيى اللحياني كما يذكر النائب الانصاري[9]، وبناء العديد من المساجد، الذي يشيد بكثرتها التجاني في قوله: "أن بالمدينة عدداً كبير من المساجد تكاد لا تحصى كثرةً"، ونجده يبالغ في عدد تلك المساجد في قوله: "وهي (يقصد المساجد) تكاد تناهز الدور عدةً".[10]

وبانهيار الحكم الحفصي بدأت فترة قصيرة كانت تتصف بالاستقلال وباختيار حكام البلاد من شيوخها وزعمائها بالمبايعة المحلية؛ ولكن نشوب الخلافات بينهم حول الأحقية في الحكم مهدت الطريق أمام الاحتلال الإسباني للمدينة سنة (916هـ-1510م).

6 بن إسماعيل، عمر علي، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا،1795-1835م مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1966م، ص 182.
7 الجميل، علــــي ميـــــــلاد. البيوت العربية الإسلامية بالمدينة القديمة طرابلس خلال العهد القرمانلي (1711-1835). أطروحة ماجستير. كلية الأداب والعلوم. جامعة مصراته. 2010م. ص9.
8 الشريف الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس. نزهة المشتاق في اختراق الافاق. المجلد الأول. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. 2002م. ص 297.
9 الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص 164.
10 التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن احمد. رحلة التجاني. الدار العربية للكتاب. ليبيا- تونس. 1981م. ص254.

وقد حاول الإسبان تشجيع الاستيطان الأوروبي للمدينة بعد أن هجرها سكانها، ويقدم لنا بهذا الخصوص الرحالة ليون الأفريقي (أبو الحسن الوزان) إبان زيارته للمدينة عام (1518م) صورة عن الدمار الذي لحق بها من جراء العمليات الحربية الإسبانية، وأنها كانت تستعبد سكانها وأن القلعة مهجورة آنذاك[11]، ولعل مما يوضح أثر الغزو الإسباني على العمارة الإسلامية في طرابلس أن هؤلاء الغزاة قاموا بهدم جامع الناقة على رؤوس اللاجئين إليه من السكان المحليين.[12]

واخيراً قام سكان المدينة بعدما ذاقوا الأمرين من الوجود المسيحي في بلادهم بالالتجاء إلى دار الخلافة الإسلامية في إسلامبول، فما كان من السلطان سليمان القانوني إلا أن يستجيب لمطالبهم، وبدأ الفتح العثماني للمدينة بأسطول عثماني يقوده سنان باشا ودرغوث باشا ومراد آغا، لتدخل طرابلس تحت السيادة العثمانية سنة (1551م) حيث بدأت مرحلة جديدة ومهمة في تاريخ العمارة والفن الإسلامي بطرابلس.

ثانياً: العوامل الاجتماعية (طبقات سكان مدينة طرابلس وأجناسهم):

لقد تنوعت التركيبة السكانية لمدينة طرابلس من حيث العرق والدين واللغة، فهناك العرب والأتراك واليهود والجاليات الاوروبية المسيحية، وقد أثرت تلك التركيبة بدورها في تقسيم أحياء المدينة، حيث نجد أن كل عنصر من تلك العناصر كان له في الغالب حي بعينه من أحياء المدينة، فهناك مثلاً الحارة الكبرى والحارة الصغرى وقد سكن تلك الحارتين يهود مدينة طرابلس، وهناك الحي الأوروبي الذي تميز بوجود القنصليات الخاصة بالدول الأوروبية، ومساكن ممثلين تلك الدول والجاليات الخاصة بها، حيث اطلقت بعض مسميات الشوارع في تلك الاحياء نسبة إلى جنسية ساكنيها، مثل شارع الإسبانيول الذي تميز بتواجد عدد كبير من الجالية الإسبانية، وشارع الفرنسيس حيث تقع القنصلية الفرنسية ويسكنه أيضاً عدداً من أبناء الجالية الفرنسية.

وقد كان لهذا التنوع السكاني أثره في البيئة المعمارية للمدينة حيث كان لكل حي خصوصيته التي فرضتها الاختلافات الدينية والثقافية، حيث نجد أن لكل طبقة من السكان أماكن العبادة الخاصة بها، فقد انتشرت المساجد في الاحياء التي يقطنها المسلمين، وفي الأماكن العامة التي تكثر بها الأسواق والمحال التجارية، في حين نجد أن المسيحيين من السكان كانت لهم كنائسهم الخاصة بهم، بل أن الكنائس تنوعت بتنوع المذهب الذي ينتمي إلية السكان المسيحيين فقد ذكر الفيسي ميلانوفيتش في تقريره الذي أعده عن مدينة طرابلس أن المدينة كان بها عام 1765م كنيسة لاتينية (كاثوليكية) لاتباع المذهب الكاثوليكي المسيحي، وأخرى يونانية (أرثوذكسية) لاتباع المذهب الأرثوذكسي المسيحي[13]، ويبدو أن المسحيين كانت لهم كنائس صغيرة خاصة بكل طائفة تكون أحيانا في بعض الفنادق حيث يذكر القس برنيا أن اليونانيين كان قد خصص لهم جزء من الفندق البحري لإقامة كنيسة بأسم القديس جورج ليمارسوا بها شعائرهم الدينية[14]، أو أنها تكون ملحقة بدور القنصليات كتلك التي كانت ملحقة ببيت

---

11 الوزان، أبو الحسن بن محمد، (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية بيروت، 1983ف، ص101

12 ميسانا، غاسبري ، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب: علي الصادق حسنين، دار الجيل، دار الرواد، بيروت، 1973ف، ص166.

13 هذا التقرير أعده ألفيسي ميلانو فيتش عن وضع مدينة طرابلس عام 1765م وتحصيناتها وحكومتها وأسلحتها، يوجد هذا التقرير بمحفوظات الرهبان بالبندقية، وقد أورد جورج كابوفين صورة منه في كتابة طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر الميلادي. للمزيد راجع، كابوفين، جورجو. طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر. ترجمة عبد السلام مصطفى باش امام. منشورات مركز جهاد الليبيين. طرابلس. 1988م. ص 299.

14 برنيا، كوستانزيو، طرابلس من 1510 الى 1850، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، مصراته، 1985م، ص152.

قنصل البندقية[15]، وكان لليهود معابدهم الخاصة، حيث كان لهم ثلاث معابد يهودية واحد داخل أسوار مدينة طرابلس وهذا المعبد يعد الرئيسي في معابد اليهود في إقليم طرابلس، وأخران يقعا خارج أسوار المدينة، وقد ذكر الرحالة كاوبر أن اليهود أخبروه بأن هذا المعبد الرئيسي (هو يذكره بأسم توراة) عمره 230 سنة، وأنه مشيد على معبد أخر أقدم منه.[16]

وقد شهد أغلب من زار طرابلس من رحالة وتجار ورجال دين مسيحيين بأن المدينة كانت مضرب للمثل في التسامح الديني بين معتنقي الأديان المختلفة من السكان، فقد ذكر ميلانوفيتش أن رجال الدين بالكنائس المسيحية كانوا يلقون معاملة في غاية الاحترام، وأن دور القناصل أيضا كان لها احترام خاص لدرجة أنهم كانوا يتمتعون بامتياز حق الاجارة، بمعنى أن من استجار بتلك القنصليات فهو آمن[17]، ويضيف الرحالة كاوبر "أن المسيحيون في طرابلس يلقون معاملة كريمة فهم أحرار تماماً، وأن من يريد أن يتعرف على مدى احترام الطرابلسيون للمسيحيين فعليه أن يزور المدينة في عيد الفصح، حيث يحتفل الكاثوليك احتفالاً ضخماً، يحولون فيه المدينة إلى كتلة ملتهبة باستخدام الألعاب النارية التي تخصص حكومة طرابلس البارود اللازم لها، وأن الباشا ورجال الديوان يقومون بزيارة القناصل لتحيتهم بهذه المناسبة الدينية"، ويستطرد ذلك الرحالة في الوصف حيث يختم حديثه بتساؤل عن من يقول بأن المسلمين غير متسامحين، ويتساءل أيضا هل نسمح نحن في إنجلترا بأن تقام مثل تلك الاحتفالات الدينية للهنود الحمر أو المسلمين في أوسع الميادين.[18]

وتتميز أحياء المسلمين بالنظافة والهدوء كما يصفها الرحالة كاوبر حيث يذكر أنه في غرب المدينة تقع حومة كوشة الصفار التي يسكنها المسلمون وهي تخلو من المباني العامة، وهي حومة هادئة نظيفة ومنظمة[19] وأن العرب وإن كانوا لا يتقنون الصناعات التي يتقنها اليهود والمالطيين إلا أنهم يتميزون عنهم بقوة الشخصية وأنهم أكثر احتراماً ونبلاً، وأن شوارعهم أنظف وأقل عفونة، وأن المارين يفضلون المرور من شوارع الأحياء العربية عن المرور بشوارع اليهود والمالطيين، ونظراً لما يتميز به المسلمين بطرابلس أسوة بغيرهم من المسلمين في كل مكان، فقد كانوا محافظين على خصوصيتهم وخصوصية بيوتهم، حيث لم يكن بأحيائهم مباني عامة ولا أسواق من شأنها أن تجلب إليهم الزوار الغرباء، وهم بذلك يختلفون عن اليهود بحكم الدين في ستر بيوتهم من أعين الناس، فقد لاحظ ذلك الرحالة الإيطالي جوستنيانو روسي الذي زار طرابلس في الفترة من عام 1901-1902م، وقد نشر أحداث رحلته تحت عنوان (طرابلس وتونس اليوم) حيث يقول: "إن شوارع الحي العربي مكونة من بناءات غريبة ذات طابع فني، أبوابها مغلقة تمنح المشاهد شعوراً بالغموض والسر، بينما يقع العكس في المنازل اليهودية فأبوابها مفتوحة تماماً ويمكن للسائح ألا يكتفي بالنظر إليها بل يمكنه أن يدخلها دون اعتبار أو حذر".[20] ومن أجل ذلك لا عجب أن يتخذ المسلمون حلولاً معمارية للوصل إلى اقصى درجات الخصوصية سواءً باتخاذ المداخل المنكسرة بحيث لا يستطيع المار إستراق النظر إلى داخل البيوت، أو التقليل من النوافذ المطلة على الشارع، والتي أن وجدت فهي فقط توجد في القاعات

---

[15] ورد في المرسوم الصادر من مجلس شيوخ البندقية والذي يقضي بتكليف المدعو اوغسطينو بيلانو قنصل عام لدى طرابلس بتاريخ 15 يناير من عام 1785م، حيث ورد بذلك المرسوم بعض التعليمات التي تقيد مهام سلطته، ومن ضمن تلك التعليمات الحث على استخدام الكنيسة الصغيرة التابعة للقنصلية والتي بنيت بمنزل القنصل، وعدم استعمال غيرها، وعدم السماح لرجال الدين الشرقيين بالقاء المواعظ فيها، وان يكلف قسيس خاص بها لإلقاء المواعظ، على ان يكون ذلك القسيس كاثوليكياً تابعا للكنيسة الرسولية بروما. للمزيد راجع: جورجو كابوفين، 1988م، ص 340.

[16] كاوبر، هـ. س. مرتفع الإلاهات الجمال واستكشاف الهياكل الثلاثي في المواقع المغليثية في طرابلس. ترجمة أنيس زكي حسن. مكتبة الفرجاني. طرابلس. (د.ت). ص 35.

[17] جورجو كابوفين، 1988م، ص 304.

[18] هـ. س كاوبر. (د.ت). ص 39.

[19] هـ. س كاوبر. (د.ت).ص 25.

[20] خليفة محمد التليسي.1997م، ص203-204.

المخصصة لاستقبال الضيوف من الرجال، أما بقية الغرف لاسيما المخصصة للنساء فإنها تستمد الإضاءة والتهوية من الفناء الداخلي للمنزل.

ويمثل اليهود قسم مهم من سكان طرابلس وهم يسكنون الجزء الشمالي الغربي من المدينة ويعرف حيهم بالحارة الكبيرة والحارة الصغيرة ويشكل شارع قهوة دحمان والشارع الممتد من باب الجديد وحتى الأربع عرصات الشارعين الرئيسيين بالحي، ومنهما تتفرع ازقة وشوارع ضيقة وملتوية، لا نظام فيها ولا ترتيب ويمكن أن يضيع فيها من لا يعرفها بصورة جيدة كما يذكر كاوبر، وهو يضيف "أن تلك الشوارع من القذارة والعفونة بحيث أن من يمر بها ولا يتقيأ فهو يمتلك معدة قوية بكل تأكيد، فبهذه الشوارع أكوام من الخضروات المتعفنة والكثير من برك المياه الأسنة وأن المرء يضطر إلى القفز بين تلك البرك للمرور بتلك الشوارع وأن بيوتهم قذرة تشبه في قذارتها بيوت الخنازير".[21]

أما المسيحيون فهم لا يقلون أهمية عن باقي سكان طرابلس ولا يستطيع أحد أن يتحدث عن مدينة طرابلس بدون ذكرهم، وهم ينقسمون إلى عدة جنسيات فمنهم اليونانيون والإيطاليون والمالطيين، ويعد المالطيين أكثر الجاليات الأوروبية أهمية فهم يسكنون في الجزء الشرقي من المدينة، يحد منطقتهم من الشمال والجنوب شارعا قهوة دحمان والأربع عارصات، ومن الغرب فتحدها حارة اليهود، وفي هذا الجزء من المدينة يسكن أغلب الأوروبيون ويعرف هذا الحي بحومة باب البحر حيث تجتمع القنصليات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ولذلك فهناك من يطلق عليه الحي الأوروبي الدبلوماسي، وتوجد أيضا الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية السالفة الذكر، ويتميز الحي الذي يسكنه الأوروبيون بإطلالته المميزة على شاطئ البحر والميناء، ويمكن أن نعزو اختيار الأوروبيون لهذا الحي من المدينة بالذات نظراً لموقعه المميز المطل على البحر والميناء، حيث أن الميناء يعد المنفذ الوحيد لطرابلس على العالم الخارجي لاسيما العالم الأوروبي، فمنه يستقي الأوروبيون الأخبار، وهو المنفذ الأسرع والأكثر أمناً إن حدث أي اضطراب في الإيالة، وكذلك فأن القناصل عادة ما يؤدون أعمال تجسسيه لصالح دولهم، وأن قربهم من الميناء يمكنهم من مراقبة الحركة البحرية ومعرفة من يدخل ومن يخرج من الإيالة، فضلاً عن أن هذا الحي يضم بيوت كبار الساسة وعلية القوم من ذوي النفوذ السياسي والاقتصادي من باشوات ووزراء ورياس بحر.[22]

ثالثاً: العوامل السياسية والعسكرية (الحوادث والفتن):

يقصد بالحوادث والفتن تلك النوازل التي حلت بمدينة طرابلس وأضرت بسكانها وعمرانها، مثل محاصرة بعض الأساطيل الأجنبية للمدينة وضربها بالقنابل، إما لإرغام حكامها على الإذعان لمطالبهم وإما تأديباً لهم على ما اقترفته بحريتهم وبحارتهم في حق السفن التابعة لتلك الدول، أو المطالبة بإرجاع السفن المختطفة أو التعويض المالي عن ما لحق بتجارتهم وبضائعهم من أضرار، أو محاولات الانقلاب التي كان يقوم بها الجنود عادة لتغيير الحاكم وتنصيب أخر مكانه، أو الصراعات بين أفراد الأسرة القرمانلية للاستئثار بالحكم دون الاخرين، أو محاولة أطراف خارجية لتقويض حكم القرمانليين، ويندرج أيضا تحت الحوادث والفتن تلك المجاعات والأوبئة التي كانت تفتك بسكان المدينة بين الفينة والأخرى.

1. طرابلس والأساطيل الأجنبية:

يعد أسطول فرنسا أول أسطول بحري يهاجم مدينة طرابلس بعدما أصبحت تحت حكم الاسرة القرمانلية، حيث أن البحرية الليبية كانت قد أسرت سفينة تجارية بحرية محملة بكميات من الحرير بقيادة

---

[21] هـ. س كاوبر. (د.ت). ص 36.
[22] أبو زبيدة، أحلام، قريرة، عبد الرازق. مبنى القنصلية الأمريكية دراسة تاريخية للمبنى وللعلاقات الليبية الأمريكية، منشورات مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة بإطرابلس، طرابلس. 2004م. ص 69-70.

القبطان أوليه دي مرسيليا (Ollier de Marsiglia) وذلك عام 1722م، وعلى الرغم من محاولات القنصلية الفرنسية برد السفينة، إلا أن الباشا أعتبر أن تلك السفينة هي غنيمة قانونية لكونها لم تكن ترفع العلم الفرنسي، فضلاً عن بعض الأعمال الأخرى التي اقترفها البحارة الطرابلسيين والتي اعتبرتها فرنسا انتهاكاً للمعاهدات المبرمة بين الطرفين وإهانة للعلم الفرنسي، وبناءً على ذلك فقد أرسلت فرنسا أسطولاً حربياً بقيادة نيكولا دي جراند برية (Nicola de Grandpre) وصل هذا الأسطول سواحل طرابلس في يوم 16 يوليو من عام 1728م، وذلك في محاولة لتأديب أحمد باشا القرمانلي والي طرابلس، واجباره على تجديد معاهدات الصلح المبرمة بين الطرفين، ورد السفن الفرنسية المحتجزة في طرابلس، وفك أسر السجناء الفرنسيين، ومطالبة الباشا بتعويضات مالية عن الاضرار التي وقعت بالسفن الفرنسية من قبل بحارة طرابلس، وكان هذا الأسطول يتألف في مجمله من ثلاث عشرة قطعة بحرية، وقد بلغ إجمالي المدافع التي تحملها تلك القطع البحرية 398 مدفعاً، وقدر عدد طواقمها بحوالي 3600 رجل.

وبعد أخذ ورد بين أحمد باشا وقائد الأسطول الفرنسي فشلت المحاولات في الوصول إلى حل يرضي الطرفين، وذلك بتمسك أحمد القرمانلي بعدم تقديم تنازلات حتى لو أستدعى الأمر إعلان حالة الحرب بين طرابلس وفرنسا، وبالفعل فقد تم اعلان حالة الحرب بين الطرفين، وفي الساعة الثامنة والربع من مساء يوم 20 من شهر يوليو بدأ الأسطول الفرنسي بضرب المدينة بالقنابل، واستمر القصف حتى يوم 26 من الشهر عينه، حيث أرسل قائد الأسطول الفرنسي لأحمد باشا يعرض عليه الصلح مرة ثانية وقوبل هذا الطلب بالرفض، لدرجة أن الباشا قد أرجع رسائل قائد الأسطول دون فتحها. وفي النهاية نفذت كميات القنابل التي كانت على متن الأسطول الفرنسي وخشى قائده من تغير الجو ولذلك قرر الانسحاب ومغادرة طرابلس وكان ذلك يوم 29 من يوليو.[23]

وقد ترتب على هذا الهجوم كما يذكر ميكاكي تدمير أكثر من ثلث المدينة، وأن لم تكن هناك خسائر كبيرة في الأرواح بين سكان طرابلس، إلا أن المدينة تضررت بشكل كبير من جراء ذلك القصف، حيث تم استهدافها بأكثر من 1800 قنبلة، وقد تركزت ضربات الأسطول على قلعة طرابلس باعتبارها مسكن أحمد القرمانلي الذي أصابه اكثر من 40 قنبلة، لدرجة أن الباشا قد غادرها واستقر خارج أسوار المدينة إلى أن انتهى الهجوم، ولم يسلم من هذه الغارة حتى القنصلية الفرنسية نفسها التي أصيبت بقنبلتين تقريبا.[24]

وفي اليوم التالي من مغادرة الأسطول الفرنسي لشواطئ طرابلس، عاد الباشا إلى القلعة، وكان جناحه بها قد هدم تماماً حيث أمر بإعادة بنائه على الفور،[25] ويذكر القس برنيا على لسان الرحالة تولوت (Tollot) أن الأضرار التي لحقت بالمدينة جراء ذلك القصف كانت كبيرة، وقد ظلت بطرابلس آثار الخراب والدمار الذي لحق بالمنازل والأسوار طوال ثلاثة أعوام بعد تلك الحادثة حتى شاهدها ذلك الرحالة.[26]وقد استأنفت المدينة حياتها العادية بعد رحيل الاسطول الفرنسي، إلا أن هذا الهجوم سبب في تدهور العلاقات السياسية بين طرابلس وفرنسا، لذلك صار البحارة الطرابلسيين يقتنصون الفرص لأسر كل السفن الفرنسية التي تقع تحت أيديهم، وقد بلغ عدد السفن التي تم أسرها حوالي عشرون سفينة بحلول شهر نوفمبر من نفس السنة.

---

[23] ميكاكي، رود لفو، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص47-51.
24 يرى فيرو أن استهداف البوارج الفرنسية لمبنى القنصلية الفرنسية انما كان بهدف إصابة الطرابلسيين الذين اقتحموا مبنى القنصلي الفرنسية والعبث بمحتوياتها، ومحاولتهم لخلع عمود صاري العلم الفرنسي، وعندما شاهدتهم السفن الفرنسية بادرت بإطلاق قنبلتين عليهم مما أدى الى تحطيم جناحي القنصلية. للمزيد راجع فيرو، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994م، ص290.
[25] شارل فيرو، 1994، ص291.
[26] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص224.

وعلى الرغم من أن الهجوم على طرابلس من قبل الأسطول الفرنسي قد ألحق أضرارا ًكبيرة بالمدينة، إلا أنه جعل الحكام القرمانليين يفكرون بجدية في تقوية أسطولهم، ويزيدون من تحصينات المدينة وقوة مدافعها، والحرص على بناء أبراج جديدة لتعزيز التحصينات، والحصول على مدافع ذات حجم أكبر ومدى مؤثر أكثر بعداً، فعندما أعتلى العرش محمد باشا القرمانلي ثاني الولاة القرمانليين عمل على الاهتمام بالأسطول البحري اهتماماً بالغاً حيث زاد من عدد سفنه، وحرص كل الحرص على أن يبلغ ذلك الأسطول أقصى درجات التأهب في وجه الأساطيل الأوروبية، ونلاحظ أثر ذلك في حرص تلك الدول على كسب ود محمد باشا القرمانلي، وعقد المزيد من الاتفاقيات التي من شأنها حماية مصالحها وتجارتها البحرية وتأمين سفنها في البحر المتوسط،[27] وقد حذا حذوه من جاء بعده من الولاة، إلا أن أكثر فترات البحرية الليبية تميزاً وأقواها تجهيزاً هي فترة حكم يوسف باشا القرمانلي، الذي أهتم بالناحية العمرانية لمدينة طرابلس، حيث قام بإنشاء العديد من المباني في المدينة، فضلاً عن قيامة بترميم وزيادة تحصيناتها، ففي شهر ديسمبر من عام 1795م قام بتحصين سور المدينة من الجهة الغربية بدايةً من باب البحر وصولاً إلى المقبرة المسيحية،[28] وقد نصب على ذلك السور ما يقارب السبعين مدفعا جلها من البرونز، وذلك وفق خطته الرامية إلى توسيع نشاط أساطيله في أعمال الغزو البحري، ولكي يضمن لها قاعدة حصينة يمكن اللجوء إليها إذا اقتضت الحاجة، كما عمل على إنشاء عدة أبراج جديدة على هذا السور وعلى عدة نقاط أخرى خارج المدينة.[29]

وكدليل على تحصينات مدينة طرابلس وقوة مدافعها في عهد يوسف القرمانلي يذكر لنا ميكاكي أن حصانة أسوارها وقوة مدفعيتها كانت تحول دون اقتراب الأساطيل الأجنبية التي ترغب في ضرب المدينة بالقنابل، وبذلك تظل مدفعيتها غير ذات جدوى لبعدها عن المدينة، وهو في هذا السياق يسوق لنا مثالاً على ذلك فعندما قدم أسطول مملكة سردينيا للتفاوض مع الباشا وفرض شروطهم بالقوة، وتخييرهم للباشا بين الرضوخ لمطالبهم أو القيام بضرب المدينة بالقنابل، فلم يعر يوسف باشا تهديداتهم أي اهتمام، لثقته بقوة تحصيناته، غير أن ذلك الأسطول عمل على خطوة جريئة كان من شأنها أن يتسلل البحارة ليلاً إلى الميناء ويضرموا النيران في سفن الباشا الرابضة فيه، بعدما عجزوا عن ضرب المدينة بالقنابل.[30]

وتتجلى قوة تحصينات طرابلس أيضا في وقوفها في وجه الأساطيل الأمريكية التي حاولت مهاجمتها أكثر من مرة، حيث أن أمريكا التي كانت تدفع ليوسف باشا مبالغ كبيرة لضمان سلامة وحرية حركة سفنها التجارية، وقد حاولت التخلص من تلك القيود التي فرضتها عليها أساطيل دول شمال افريقيا ولكن دون جدوى، فعمدت إلى تقوية أسطولها للوقوف في وجه تلك الأساطيل، وبالفعل فقد حققت ما كانت تصبوا إليه، حيث أضحت تمتلك أسطولاً حربياً قادراً على تامين سفنها التجارية، وعندما شعرت أمريكا أن قوتها بدأت تقوى أخذت تماطل في دفع ما عليها من مبالغ، فغضب يوسف باشا، وأعلن بنيته في تلقين الحكومة الأمريكية درساً لن تنساه إذ لم تدفع ما عليها من ديون ، فأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى القنصل الأمريكي بطرابلس يحثه على التعجيل بدفع ما على حكومته من مبالغ فوراً، وإلا فالاستعداد للحرب، وعندما فشل القنصل الأمريكي في التوصل لحل يرضي حكومته ويرضي الباشا في الوقت نفسه، قام يوسف باشا بإصدار أوامره إلى جنوده لتحطيم سارية العلم الأمريكي

---

27 أبو عجيلة، محمد الهادي عبدالله. النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية (1711م-1835م) وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية. منشورات جامعة قاريونس. بنغازي. 1997م. ص125.
28 كوستانزيو برنيا، 1985م، ص243.
29 أحمد النائب الأنصاري، د.ت، ص 312.
30 رودلفو ميكاكي، د.ت، ص188.



المرفوع أمام مبنى القنصلية الأمريكية[31]، وطرد القنصل الامريكي، وبذلك فقد تم إعلان الحرب بين البلدين، وفي شهر أغسطس من عام 1801م وصل أسطول أمريكي صغير بقيادة القائد ر. ديل وعندما لم يفلح هذا الأسطول في الاقتراب من المدينة بسبب قوة مدافعها وقوة تحصيناتها، فإنه حاول فرض حصار على المدينة إلا أن هذا الحصار لم يكن ذا جدوة.[32]وفي شهر أكتوبر من عام 1802م أرسلت الحكومة الأمريكية أسطولاً بحرياً اخراً بقيادة القائد البحري موريس، الذي توجه إلى طرابلس وحاول ضربها بالقنابل أيضاً، إلا أن مدافع القلعة والأبراج كانت له بالمرصاد فمنعته من الاقتراب من أسوار المدينة، وبذلك أصبحت مدافع أسطوله غير ذات جدوى، مما أضطره إلى الاكتفاء بفرض حصار بحري على المدينة، وهذا الحصار بدوره لم يكن مجدياً إذ كانت سفن الباشا تستطيع الخروج للغزو رغم ذلك الحصار، فقد خرجت ثلاث طرادات طرابلسية رغم الحصار ونجحت في أسر السفينة فرانكلين، وهي أحدى السفن الأمريكية التجارية والتي كانت في طريقها من مرسيليا إلى جزر الهند الغربية، وتم نقل قائد السفينة وباقي أفراد طاقمها الثماني إلى ميناء الجزائر، ثم نقلوا منها إلى ميناء بنزرت بتونس، حيث تم بيع السفينة فرنكلين وحمولتها، ثم نقل الأسرى الأمريكيين إلى طرابلس رغم الحصار المفروض عليها من قبل الأسطول الأمريكي والأسطول السويدي[33]

وقد حاولت الحكومة الأمريكية إرسال حملة جديدة بقيادة القائد بربل للانتقام من يوسف باشا القرمانلي، ولمحاولة تحقيق ما فشلت به حملتهم السابقة التي قادها القائد موريس، بدأت طلائع هذه الحملة تصل تباعاً إلى شواطئ طرابلس في شهر أكتوبر من عام 1803م، وكانت هذه الحملة تتألف من سبع قطع بحرية، تعد السفينة فيلادلفيا أكبرها حجماً وأكثرها تسليحاً، لكن حدث مالم يكن في الحسبان حيث تم أسر البارجة فيلادلفيا من قبل الأسطول الطرابلسي.

هاجم القائد بربل طرابلس مرة أخرى بعدما وصلته التعزيزات الحربية من بلاده من سفن حربية وعتاد، وكان قد أستأجر عدة سفن حربية أخرى مزودة بمدافع من بعض الموانئ الأوروبية، وحاصر طرابلس، وأرسل إلى يوسف باشا يدعوه للتفاوض وإطلاق سراح الأسرى الأمريكيون، أو أنه سيقوم بضرب المدينة بالقنابل، وقد رفض الباشا التفاوض وطالب بمبالغ كبيرة لإطلاق سراح الأسرى، وهنا بدأ بربل بقصف المدينة بالقنابل، وقد ردت مدفعية القلعة والأبراج على ذلك القصف بشكل جيد، وصمدت المدينة في وجه ذلك القصف مما جعل القائد بربل يلجأ للتفاوض مرة أخرى ويعرض مبالغ مالية كفدية لتسليم الأسرى وإحلال السلام، وكان في كل مرة يزيد من قيمة الفدية، وكان الباشا في كل مرة يرفض ذلك، في محاولة منه للحصول على مبالغ أكبر، وكان الفشل الذي يمنى به الأمريكيون في كل مرة يقصفون بها طرابلس بالقنابل وسعيهم المستمر في طلب التفاوض، كل ذلك كان يجعل يوسف باشا يصر على موقفه ويزيد يقينه بأن الأسطول الأمريكي لا يمثل له تهديداً حقيقياً.[34]

وعندما فشلت العمليات الحربية التي شنها الأسطول الأمريكي على طرابلس عمدت الحكومة الامريكية إلى إثارة أحمد القرمانلي شقيق يوسف باشا المخلوع عن العرش ضد أخيه، ولولا تلك الحيلة لما تمكن الأمريكيين من عقد الصلح بينهم وبين يوسف باشا، ذلك الصلح الذي قضى بأن يتم تبادل الأسرى بين الطرفين حيث كان لدى الأمريكيين حوالي مائة أسير طرابلسي، وكان لدى طرابلس ما يربو عن ثلاثمائة أسير، ويتم دفع مبلغ 60 الف قرش مقابل المائتي أسير الأخرين من قبل الولايات

---

[31] رايت، لويس، وجوليا ماكليود، الحملات الامريكية على شمال افريقيا في القرن الثامن عشر 1799-1805م، تعريب محمد روحي البعلبكي، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص142.
[32] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص 154.
[33] رايت، لويس، وجوليا ماكليود، د.ت، ص 191.
[34] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص 160.

المتحدة، وأن تقوم الحكومة الأمريكية بسحب كافة أسطولها من شواطئ طرابلس، وتتعهد بإرجاع أحمد القرمانلي من حيث أتى، وبهذا أنتهى الصراع المرير بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية.[35]

في يوم 25 سبتمبر من عام 1825م هاجم طرابلس أسطول مملكة سردينيا وتم أجبار الباشا على تجديد المعاهدة التي عقدها معهم في عام 1816م، وكذلك في 22 أغسطس من نفس العام هاجم طرابلس أسطول نابولي، بيد أنه لم يلحق بها أضرار فادحة، وعاد ذلك الاسطول أدراجه دون أن يحقق أيه أهداف.[36]

ومن هذا المنطلق نجد أنه إلى جانب التأثيرات السلبية لهجمات الأساطيل الأجنبية على طرابلس وتدمير أجزاء كبيرة من عمرانها، وفي المقابل فقد كان لتلك الهجمات تأثيرات إيجابية حيث جعل التأهب لها عاملاً مهماً من عوامل تجديد وتقوية تحصينات المدينة وإضافة أبراج جديدة دعماً لتلك التحصينات، وهذا ما نسميه بالتأثير الإيجابي لعوامل التطور العمراني.

2. ثورة البحارة الارناؤوط على محمد القرمانلي وقصفهم للقلعة بالمدافع:

لقد كان من شأن الاتفاقيات التي عقدها محمد القرمانلي ثاني الولاة القرمانليين على طرابلس مع الدول الأوروبية بشأن الحد من النشاط البحري وعمليات الغزو التي كان يقوم بها بحارته أن تخلق نوعاً من التذمر بين البحارة التابعين للأسطول الليبي، حيث تم اجباره من قبل الإنجليز بالتلويح باستخدام القوة ضده على توقيع معاهدة صلح بينهما، وقد حذت فرنسا حذو إنجلترا في ذلك، إذ أنها أرسلت أسطولاً بحرياً استطاع أن يفرض على الباشا في الثالث من شهر مايو عام 1752م إضافة بند جديد إلى اتفاقية الثالث من شهر أغسطس عام 1729م، وهذا البند يقضي بمعاقبة البحارة الطرابلسيين بمنتهى الشدة وأحياناً ترقى العقوبة لتصل حد الإعدام في حالة إساءة معاملة قباطنة السفن الفرنسية أو أصحابها أو بحارتها، أو عرقلة سير الملاحة، أو إهانة العلم الفرنسي بأي طريقة كانت.

وبذلك فان محمد باشا كان قد وقع بين مطرقة الدول الأوروبية وسندان بحارته الذين غضبوا غضباً شديداً لعقد تلك الاتفاقيات لأنهم أحسوا من خلالها بالإهانة، كما أنهم أحسوا بالتضييق على مصدر رزقهم، وقد كان البحارة الألبان والأرناؤوط أكثر البحارة غضباً لدرجة أنهم عملوا على تدبير مؤامرة لخلع الباشا وإحلال أحد رؤسائهم محله، حيث قاموا في مساء يوم 30 من يوليو عام 1752م وفق ما جاء في رواية القنصل الدنماركي سميث من خلال خطاب كان قد أرسله إلى خارجية دولته، حيث كان شاهد عيان على تلك الحادثة. وقد أورد ميكاكي ذلك الخطاب في كتابه الذي يتحدث عن تاريخ طرابلس، وفي ذلك الخصوص يقول القنصل سميث: أنه في السابع عشر من الليلة المذكورة وبعد فراغ الناس من صلاة العشاء بإحدى ليالي شهر رمضان، أندفع المغامرون بأسلحتهم في شوارع المدينة وقاموا بقتل شيخ البلد وثلاثة أو أربعة من أعيان المدينة، ثم قاموا بالاستيلاء على جزء من أسوار المدينة وأبراجها[37] وقصفوا القلعة مقر حكم الباشا بمدفعية تلك الأسوار. إلا أن الأهالي لم ينضموا إليهم في ثورتهم ضد الباشا كما كانوا يأملون، بل على العكس خرج الأهالي في جماعات كبيرة يهتفون بأسم الباشا في شوارع المدينة، وكذلك زحف عرب الدواخل نحو طرابلس نصرة للباشا، وعندما أحس البحارة بأنهم غير مرغوب فيهم وأن ثورتهم قد باءت بالفشل لاذوا بالفرار، فاقتحموا الميناء عنوة

---

[35] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 113-116.
[36] خليفة محمد التليسي.1997م، ص147.
[37] ورد في تقرير ألفيسي ميلانو فيتش ان برج الفرارة هو أول برج أحتله البحارة الأرناؤوط عند تمردهم على محمد باشا القرمانلي، ومنه استهدفوا قصر الباشا بالمدفعية. للمزيد راجع، جورجو كابوفين. 1988م. ص 296.

واستولوا على سفينة إنجليزية كانت راسية بالميناء وهربوا على متنها، وقد تم القبض على عدد منهم ممن لم يستطيعوا الهرب وأُعدِموا في اليوم التالي، وكان عددهم خمسين شخصا تقريباً.[38]

3.الصراع بين أبناء علي القرمانلي على السلطة:

ومن بين الحوادث والفتن التي عصفت بمدينة طرابلس وأثرت سلباً على عمرانها ذلك الصراع الذي نشب بين أبناء علي باشا القرمانلي على السلطة، فقد كان للباشا ثلاثة أولاد، وهم بالترتيب حسن وأحمد ويوسف، وكانت العلاقة بين هؤلاء الأخوة سيئة جداً، وكان أشد هؤلاء الأخوة خطراً وحباً للسلطة أصغرهم سناً والمسمى يوسف، وكان لا يتوانى عن عمل أي شيء لتحقيق مبتغاه،[39] وكان هؤلاء الأبناء حسب رآي القس برنيا، لا يقيمون لأبيهم وزناً، ولا يعملون له أي حساب.[40]

وعندما أصبح علي باشا القرمانلي كهلاً مريضاً طاعناً في السن غير قادر على القيام بأعباء الولاية، لذلك قام الباشا بمشاركة أبنه الأكبر حسن بأعباء الولاية بصفته البيك ولي العهد وقائد الحرس،[41] كما كان الابنين الأخرين يحكمان بعض المناطق المحيطة بطرابلس، فقد كان الأبن الثاني أحمد قائداً لمنطقة زوارة، بينما الأبن الثالث يوسف فقد كان قائداً لمنطقة جنزور،[42] وقد حاول علي القرمانلي التوفيق بين أبنائه أكثر من مرة ولكنه لم يوفق في ذلك، ومن أجل الوصول للسلطة قام يوسف القرمانلي بتدبير مؤامرة للتخلص أخوه الأكبر حسن بيك، حيث قام بقتله غدراً في حضور والدتهما في يوم الجمعة 20 من شهر يوليو عام 1790م.

وقد كان من شأن هذه الحادثة أن تؤثر على وحدة البلاد، حيث أنقسم سكان الولاية إلى فريقين، أحدهما صفق للقاتل وناصره، والفريق الثاني طالب بمحاكمة الجاني على فعلته والاقتصاص منه، فقد أعلن سيف النصر شيخ قبائل أولاد سليمان العصيان، وأرسل إلى علي باشا يطلب منه أن يعمل بسرعة على محاسبة القاتل، وإلا فإنه سيضطر إلى مهاجمة مدينة طرابلس، وفي الوقت نفسه نجد أن قبيلة المحاميد وقفت بجانب القاتل، وأعلنت تأييدها ومناصرتها له، بينما وقف الباشا عاجزاً عن فعل أي شيء، حيث أكتفى بطلب الرحمة للمقتول، وأرسل في طلب أبنه أحمد، كما أرسل إلى أبنه يوسف يطلب منه الحضور للقلعة، وعندما رفض الأخير المجيء خوفاً من العقاب، أرسل إليه مسبحته كدليل على منحه إياه الأمان.[43]

وبعد وفاة حسن بيك تم الإعلان رسمياً في يوم 20 يوليو من عام 1790م، أن أحمد القرمانلي هو البيك الجديد للبلاد، وأستلم القفطان كعلامة للحصول على هذا المنصب، ولذلك أستلم خيول وعبيد وسلاح البيك السابق،[44] وبعد تلك الحادثة لم يكن أحمد القرمانلي يثق في نوايا أخوه يوسف، لاسيما بعدما أقدم على قتل أخيه الأكبر حسن، وقد ظل يوسف القرمانلي مقيماً خارج أسوار طرابلس في قصر أبية في ضاحية المنشية بعد حادثة قتله لأخيه، وعلى الرغم من السماح له بزيارة طرابلس، إلا أنه لم يكن يسمح له باصطحاب جنوده وحرسه داخل المدينة،[45]حيث كان يترك أنصاره وجنوده عند أبوابها،

---

[38] للمزيد حول تلك الحادثة راجع. رود لفو ميكاكي، د.ت، ص88، روسي، إيتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، 1991م ، ص349-350، جورجو كابوفين، 1988م، ص 296-297.
[39] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 50
[40] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص110.
[41] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص23.
[42] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص111.
[43] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 53.
[44] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص54.
[45] توللي، الانسة، عشرة أعوام في طرابلس، ترجمه عبدالجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1967م، ص 420.

وقد مكنته إقامته الطويلة خارج طرابلس أن يقيم لنفسه قاعدة شعبية، وذلك باتصاله المستمر وزياراته المتكررة لشيوخ القبائل القاطنة بالقرب من طرابلس، وكسب ودهم وتأييدهم.

وقد استطاع يوسف القرمانلي استمالة سكان ريف طرابلس، فشكل منهم قوة يقدرها فيرو بستمائة فارس فضلاً عن حرسه الخاص، وبهذه القوة استطاع الزحف على مدينة طرابلس ومحاصرتها، فوصل الى أسوارها في 25 يونية من عام 1791م، وقد قام أخيه أحمد بمساندة أهالي طرابلس بتحصينها والدفاع عنها، فأضطر يوسف إلى الانسحاب والتراجع، ثم أعاد الكرة مرات عديدة، لم تجد نفعا هي الأخرى، وظل على هذا الحال بين كراً وفر مدة من الزمن تقدر بعامين، ومع إصرار يوسف القرمانلي على دخول طرابلس وحصاره الخانق لها، والنقص الكبير في المؤن والأغذية داخل المدينة، والفزع المسيطر على سكانها، وخوفهم على حياتهم من احتمال اقتحامها من قبل يوسف وجنوده من ناحية، وخوفهم من الأعراب الذين قدموا لنصرة الباشا والبيك من ناحية أخرى، كل ذلك جعل أعيان المدينة يجمعون على طلب النجدة من السلطان العثماني في القسطنطينية، بأن يرسل جنوده لإقرار النظام وإعادة الأمن إلى البلاد.[46]

وقد كان للحرب بين الاخوين الأثر الكبير على مدينة طرابلس وتطور عمرانها، حيث كان لها تأثيرات سلبية تمثلت في تدمير بعض أجزاء المدينة نتيجة للقصف المتبادل بين المهاجمين والمدافعين عنها، أما التأثيرات الإيجابية فتمثلت في زيادة تحصينات المدينة وترميمها من قبل أحمد القرمانلي والأهالي المدافعين عنها وقد تحدثت الانسة توللي بصفتها شاهد عيان على تلك الفترة عن تلك التأثيرات حيث وصفت أسوار طرابلس بأنها في أسوء حالاتها، وأن يوسف القرمانلي عند حصاره لمدينة طرابلس أثناء حربه مع أبيه وأخيه، أراد أن يرسل جنوده للتسلل إلى المدينة عن طريق مقبرة اليهود القريبة من الأسوار، حيث كانت الأسوار ضعيفة للغاية من هذه الجهة، ولا يوجد عليها حتى مدفع واحد، وفي هذه الأثناء تفطن احمد القرمانلي لهذا الضعف حيث عززت حراسة ذلك الجزء وأحكمت تعزيزاته فأصبح آمناً.[47]

وفي السياق عينه تضيف الآنسة تولي أنه عند حصار يوسف القرمانلي لطرابلس فإن أسوارها أصبحت أكثر حصانة ومناعة من السنوات السابقة، وأنه قد تم سد جميع المنافذ التي توصل من الضواحي إلى مدينة طرابلس بالحجارة للحيلولة دون دخول يوسف القرمانلي لها.[48] **وأثناء** ذلك الحصار قام يوسف القرمانلي بضرب المدينة بالمدافع، فأمطرها بوابل من القنابل، وقد أصابت بعض تلك القنابل مبنى قنصليتي السويد والبندقية، حيث ألحقت بهما أضرار جسيمة، وأن شظايا من تلك القنابل قد دخلت الى غرفة النوم الخاصة بقنصل السويد.[49]ويذكر إيتوري روسي أن فترة الصراع بين أبناء القرمانلي وفترة حصار علي برغل داخل المدينة أضعفت تحصينات طرابلس ونشرت الدمار بداخل المدينة وضواحيها، ويرجع إلى تلك الفترة تدمير خزان المياه الذي يرجع تأسيسه لعهد أحمد باشا القرمانلي مؤسس الدولة القرمانلية.[50]

---

[46] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص 119.
[47] الأنسة توللي، 1967م، ص 497.
[48] الأنسة توللي، 1967م، ص 236-237.
[49] الأنسة توللي، 1967م، ص 510.
[50] إيتوري روسي، 1991م، ص374.

4. استيلاء علي باشا برغل[51]على طرابلس:

في يوم 29 يوليو من عام 1793م، أثناء ذلك الصراع الذي نشب بين أبناء علي باشا القرمانلي أحمد ويوسف على أحقية كل منهما بتولي السلطة في البلاد، ظهر في البحر أمام مدينة طرابلس عدداً من المراكب التي يرفرف عليها العلم العثماني، وعندما قدم الأسطول ورسا على شواطئ المدينة، نزل منه جنوداً مسلحين يقدر رودلفو ميكاكي عددهم بأربعمائة رجل مسلح يقودهم شاويش سلطاني،[52] وقد تلى ذلك الشاوش على مسامع الحاضرين من سكان طرابلس الذين تجمعوا لمعرفة حقيقة ذلك الأسطول فرماناً من السلطان العثماني[53] جاء فيه الإعلان عن نهاية حكم علي القرمانلي وتولية علي أفندي الجزائرلي والياً بدلاً عنه، ودعا ذلك الشاوش علي القرمانلي وأهالي طرابلس للخضوع لأمر السلطان، وهدد في حالة رفض التسليم للوالي الجديد بقرب وصول قبودان باشا على رأس أسطول عثماني كبير لفرض الوالي الجديد بالقوة.

وعندما شعر علي باشا القرمانلي بأن الجميع قد تخلوا عنه، لاسيما وأن شيخ البلد وفقهاء المدينة قد أقنعوا الناس بعدم وجوب مخالفة ولي الأمر وهو السلطان العثماني، وأن عليهم قبول الوالي الجديد، فلذلك لم يجد علي القرمانلي بداً من الهرب للنجاة بحياته وحياة أسرته فقرر الهروب من المدينة هو وأبنه أحمد بيك، ثم لحق به أبنه يوسف فيما بعد.[54]

وعندما تم لعلي برغل الاستيلاء على طرابلس دخل قلعتها، وبدل علم القرمانليين بالعلم التركي، وتعهد بأنه سيجعل طرابلس لا تقل عظمة وأهمية عن دولة الجزائر، وأنه سيقوم بإصلاح التحصينات، وسيقوم كذلك بتسليح المغامرين، وإحضار جنود أخرين من بلاد المشرق، وبالفعل فقد قام علي برغل أثناء حكمه لطرابلس بتحصين أسوار المدينة تحسباً لأي هجوم يقوم به القرمانليون لاسترجاعها، وقد سخر أهالي المدينة لإنجاز هذا العمل ولم يستثن من ذلك حتى الأطفال، وأجبر اليهود على العمل بتلك التحصينات حتى يوم السبت المخصص لعبادتهم.[55]

وفي هذه الأثناء كان الأخوين أحمد ويوسف القرمانلي قد نسيا خلافاتهما وقاما بتنظيم صفوفهما لمواجهة علي برغل حيث حاصروا طرابلس لفترة طويلة، ودارت عدة معارك بين كراً وفر بين الطرفين وهنا فقد صدقت توقعات حاكم طرابلس الجديد، وقد اجدت تحصيناته للمدينة نفعاً في صد الهجوم الذي قام به أبناء القرمانلي على المدينة أكثر من مرة، وعلى الرغم من أن علي برغل كان يفتقر إلى المؤن والذخيرة لتمويل قواته، بسبب الحصار المفروض عليه من قبل أبناء القرمانلي، إلا أنه في أحدى المعارك قام بهجوم مفاجئ على قوات القرمانليين وشتت جيشهم، ففر أبناء علي القرمانلي إلى تونس ولحقا بأبيها، ولم يفلح القرمانليين في استرجاع طرابلس إلا بمساعدة الجيش التونسي الذي هزم علي برغل وأرجع أبناء القرمانلي إلى عرشها، ويذكر ميكاكي نقلاً عن خطابات قناصل الدول الأوروبية الذين كانوا متواجدين في طرابلس في تلك الفترة بأن علي برغل قام ليلة 19 يناير من نفس العام بشحن سفينتين مملؤتين بالغنائم التي سلبها من قلعة طرابلس وجربة، وأبحر هارباً باتجاه مصر.[56]وبعد هروب علي برغل ظلت أبواب طرابلس مغلقة، ورفض الأهالي فتح الأبواب إلا إذا

---

[51] وقد سمي بعلي برغل لأنه أطعم جنوده البرغل بدلاً من القمح، وسمي كذلك بالجزائرلي لأنه مكث فترة طويلة من الزمن في الجزائر، وتقلد فيها عدة مناصب قيادية منها رئيس البحرية ثم وكيل الخراج. للمزيد راجع رودلفو ميكاكي، د.ت، ص 123.

[52] أصل الكلمة في اللغة التركية جاويش، ولها عدة معاني حسب الوظيفة وفي هذا الموضع جاءت بمعنى رتبة عسكرية تطلق على الشخص أو الرسول المكلف بإذاعة امر السلطان. للمزيد راجع: بركات، مصطفى. الألقاب والوظائف العثمانية. دار غريب للطباعة والنشر. القاهرة. 2000م. ص 188.

[53] توضيح حقيقة هذا الفرمان

[54] أحمد النائب الأنصاري، د.ت، ص 302.

[55] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص236-237.

[56] رودلفو ميكاكي، د.ت، هامش ص 128.

أعطوا عهداً بالأمان بألا يمسهم أحد، وألا ينهب العسكر أموالهم، فأجابهم قائد الحملة بذلك، ووعدهم بالأمان ووفى بعهده، ففتحت أبواب طرابلس، ودخل الوزير مصطفى برفقة أبناء القرمانلي، ونزلوا بالقلعة، ثم أُحضِر الفقهاء والعلماء وقادة الجند وأعيان البلاد، وتم الاتفاق على تولية أحمد بن علي القرمانلي عرش طرابلس.[57]

5. المجاعات والأوبئة:

شهدت طرابلس خلال فترة حكم الاسرة القرمانلية العديد من المجاعات والأوبئة، حيث كانت الولاية تعاني بين الفينة والأخرى من الجفاف الشديد وانحباس المطر الذي كان يستمر أحياناً لبضع سنوات، ومع انعدام الموارد المائية الدائمة مثل الأنهار والبحيرات، نجد أن أغلب الاعتماد كان على الأمطار الموسمية، وإذا أنقطع المطر لعدة سنوات فإن البلاد كانت تصاب بالقحط والمجاعة، ومن الطبيعي أن المجاعة تجر وراءها الطاعون، حيث أن أغلب سكان الضواحي والأرياف كانوا يتجمعون في مركز الولاية بحثاً عن الطعام، وأن الازدحام الشديد وسوء التغذية ناهيك عن أكل الناس للفضلات والجيف، يسهم بشكل كبير في تفشي الأمراض السارية بينهم، كما أن بعض أجزاء مدينة طرابلس لم تكن تتوفر بها الظروف الصحية الملائمة، حيث كان بالمدينة بعض الازقة الضيقة التي لا تدخلها أشعة الشمس، والتهوية غير كافية، فضلاً عن عدم الاهتمام بالنظافة، حيث كان أصحاب الحوانيت والمصانع يلقون بفضلاتهم في الطرقات، مثل جريان المياه المتعفنة الناتجة عن معامل الخميرة ودباغة الجلود، ناهيك عن مياه الأمطار في فصل الشتاء التي ينتج عنها الكثير من الوحل لاسيما في الشوارع الغير مبلطة، كل تلك العوامل فضلاً عن المجاعة وسوء التغذية كفيلة بانتشار الأوبئة الفتاكة.

وقد كان أول طاعون يصيب طرابلس خلال فترة الحكم القرمانلي هو ذلك الوباء الذي انتشر في المدينة وضواحيها في شهر يوليو من عام 1733م، عندما تفشى ذلك الطاعون وفتك بالناس فتكاً شديداً، سواءً في المدينة أو في أريافها وضواحيها، وقد استمر هذا الوباء حوالي شهر ونصف، حصد خلال تلك المدة أرواح أربعة ألاف شخص تقريباً من سكان المدينة من بينهم القنصل الفرنسي وولديه وأربعة من أقارب زوجته والقنصل النمساوي.[58] وفي عام 1745م حدث قحط شديد نتيجة لانحباس الأمطار، وقد نتج عن ذلك هلاك عدد كبير من الناس ودوابهم، وكان هذا القحط أشد وطأة في بنغازي لدرجة أن القنصل الفرنسي المقيم بها غادرها هو وجميع الرعايا الأوروبيين، ويذكر شارل فيرو بأن أحمد القرمانلي كان متأثرا جداً بتلك النكبات التي حلت ببلاده، فلذلك قرر التخلي عن مقاليد الحكم ومتاعبه لابنه محمد الذي كان يفضله على باقي أبنائه.[59]

وتتوالى النكبات على مدينة طرابلس وسكانها وحكومتها بسبب المجاعات والأمراض، ففي عام 1767م اجتاحت طرابلس مجاعة فظيعة[60] أدت إلى هجرة كثير من سكان الإيالة إلى مصر وتونس، فضلاً عن إصابة الأخرين بالكثير من الأمراض التي كان بعضها معدياً، كمرض الكوليرا، والتي مات بسببها أكثر من 500 شخص في مدينة طرابلس وحدها.[61] وتستمر المعاناة بعد أكثر من خمسة عشر سنة حيث أشتد القحط في عامي 1783-1784م لدرجة أن الباشا قد أستنجد بمولاي محمد سلطان مراكش، الذي كانت تربطه صلات ودية مع القرمانليين، والذي أرسل مبالغ من المال وسفنناً مشحونة

---

[57] أحمد النائب الأنصاري، د.ت، ص 307.
[58] شارل فيرو، 1994، ص289. رود لفو ميكاكي، د.ت، ص 66.
[59] شارل فيرو، 1994، ص302.
[60] إيتوري روسي، 1991م، ص362.
[61] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص 98.

بالغلال عدة مرات، وحذا حذوه بيك تونس،[62] ويقدر نائب قنصل فرنسا فاليير سنوات القحط بسبع أو ثمان سنوات.[63]

وكنتيجة حتمية بعد طول فترة القحط وحدوث المجاعة بات يلوح شبح الوباء في سماء مدينة طرابلس، ففي شهر مايو من عام 1786م، انتشر وباء الطاعون في ريف المدينة، ثم أنتقل منها بسبب قلة الرعاية الصحية والتهاون في إجراءات الحجر الصحي إلى مدينة طرابلس، حيث تفشى في كل أحيائها دون استثناء، وقد قدر عد الوفيات بسبب هذا الطاعون بما لا يقل عن 27000 شخص، حيث مات خمس سكان طرابلس من المسلمين، ونصف السكان اليهود، وتسعة اعشار السكان المسيحيين[64].

ونلاحظ من خلال كتابات شهود العيان على تلك النكبات أنه قد ينجو من الموت بسبب المجاعات الطبقات العليا من المجتمع كالأسرة الحاكمة والقناصل الأجانب والاثرياء، بيد أنه لا مفر من الإصابة من الطاعون أن كان الله قد كتب ذلك، فها هي الانسة تولي تذكر بأن وباء الطاعون قد أصاب كل طبقات المدينة الاجتماعية، بما في ذلك عائلة الباشا نفسها، وأن حسن بك أكبر أبناء علي باشا القرمانلي وولي عهده قد فقد كل أولاده الذكور في أثناء اجتياح وباء الطاعون لمدينة طرابلس عام 1786م.[65] ويذكر شارل فيرو في السياق نفسه أنه في شهر يوليو من عام 1733م تفشى وباء الطاعون بطرابلس وفتك بالناس فتكاً شديداً، سواءً في المدينة أو في الدواخل، وقد تضررت القنصلية الفرنسية كثيراً حيث قضى كل العاملين بها وعددهم أربعة عشر شخصاً ما عدى المدام ريمونديس زوجة القنصل الفرنسي، والتي أخذت على عاتقها تسيير شؤون القنصلية الفرنسية والرعايا والبحارة الفرنسيين بطرابلس رغم ما آلم بها من خطب جلل من فقدها لكل افراد عائلتها، وكان من بين الموتى القنصل الفرنسي وولديه وأربعة من أقارب زوجته وكذلك القنصل النمساوي.[66]

وإذا ما أردنا أن نتعرف على نتائج تلك المجاعات والأوبئة على عمران مدينة طرابلس باعتبارها أحدى عوامل التطور العمراني، نجد أنه لا يوجد أي تأثيرات إيجابية للمجاعات والأوبئة على عمران المدينة، وأن كان لها تأثيرات فكلها تأثيرات سلبية في المجمل، فمع المجاعات والاوبئة ينهار الاقتصاد وترتفع الأسعار وتهاجر السكان إلى بلدان أخرى ويعم الخراب، ويعزو كثيراً من الدارسين والمؤرخين الانهيار الذي لحق بالحياة الاقتصادية في ولاية طرابلس، والذي أستمر تأثيره حتى في الفترات اللاحقة من العهد القرمانلي إلى تلك الكارثة الكبيرة التي تمثلت في الطاعون الذي تفشى في المدينة عام 1786م والقحط والمجاعة الذي سبق ذلك الطاعون، وقد ذكر نائب القنصل الفرنسي فليير الذي حل محل القنصل الفرنسي العام داندرية بصفته شاهداً على تلك الفترة بأن الحالة الاقتصادية للولاية كانت في إنهيار تام عام 1786م،[67] ونجده يسهب في توضيح ذلك المشهد حيث يصف مدينة طرابلس بالأطلال والخرائب بقوله: "أن المدينة التي يقيم بها باشا طرابلس ليس بها إلا الخراب والدمار، كما أن قصره ينهار من جميع جوانبه، وأن أسوار المدينة مهدمة من أكثر من جانب مما يجعل بواباتها عديمة الجدوى، وأن الحصون والبطاريات المحيطة بالمدينة مزودة بمدافع قديمة وفاسدة، وأنها تنهار كلما أطلقت طلقاتها لإلقاء التحية على السفن الحربية التي ترسو في الميناء، وأن سنوات القحط ، ثم تفشي مرض الطاعون قضى على عدد كبير من سكان المدينة، وهاجر عدداً كبير من السكان الباقين إلى مصر وتونس، وهكذا أصبحت طرابلس عبارة عن صحراء مقفرة".[68]

---

[62] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص109-110.
[63] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص 108.
[64] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص106.
[65] الأنسة توللي، 1967م، ص394.
[66] شارل فيرو، 1994، ص289.
[67] خليفة محمد التليسي.1997م، ص123.
[68] رود لفو ميكاكي، د.ت، ص108-109.

وفي هذا الصدد تصف الآنسة توللي حالة طرابلس عند مجيئها للإقامة بها بأنها كانت مزدهرة اقتصادياً، وأن الناس كانوا يتمتعون بصحة جيدة بينما الان - تقصد بعد عام 1786م - فالاقتصاد منهار والمرض متفشي بين السكان،[69] أما الرحالة الإسباني باديا لبليك ذلك الرحالة الذي تنكر في زي شخص مسلم في طريقه لأداء فريضة الحج، حيث أرتدى ملابس عربية وأنتحل أسم عربي هو علي بك العباسي، فقد زار مدينة طرابلس في عهد يوسف باشا القرمانلي وبالتحديد عام 1805م، وكانت آثار الطاعون الذي حدث في عهد والده علي القرمانلي عام 1786م لاتزال باقية في المدينة، وفي هذا الصدد يقول: "لقد أنقص الطاعون كثيراً من عدد السكان بالمدينة إذ قضى في الغالب على أسر بكاملها، وما يزال يشاهد المرء حتى الأن بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب هذا الوباء".[70]

رابعاً: العوامل الاقتصادية:

1. التجارة:

لم تكن أهمية طرابلس كمدينة تجارية وليدة فترة حكم القرمانليين بل نجد أن هذه الأهمية ضاربة في القدم منذ أن أسست كمحطة تجارية زمن الفينيقيين، وإذا ما سلطنا الضوء على أهمية المدينة التجارية في الفترة الإسلامية باعتبارها أوفر معلومات عن تاريخ المدينة من الفترات السابقة، نجد العديد من المصادر قد تحدثت عن تلك الأهمية، فقد ذكر أبن حوقل في كتابه وصف الأرض أن طرابلس كانت صالحة الأسواق، وأنه كان يوجد في ربضها أسواق كثيرة، ونجده يعدد أصناف البضائع التي كانت تشتهر بها المدينة، ويردف قائلاً بأن المراكب تحيط بها ليلاً ونهاراً لنقل التجارة بين بلاد الروم وأرض العرب،[71]كما أننا نجد امتداح كثرة تجارتها وأسواقها الحافلة وكرم أهلها من قبل العديد من الرحالة والمؤرخين أمثال البكري والإدريسي وعبدالواحد المراكشي، والتجاني الذي وصفها وصفاً بليغاً، وقد تحدث عن كثرة تجارتها من خلال حديثه عن ميناء المدينة حيث يقول: "وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر، مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقترب المراكب فيه من البر وتصطف هناك اصطفاف الجياد في اواريها".[72]

كما يصف الكاتب مارمول في كتابه عن إفريقيا وصفاً مشابهاً لمدينة طرابلس قبيل الغزو الإسباني؛ إذ يقول: بأنها كانت تشتهر بتجارتها المزدهرة وذلك بسبب مجاورتها لتونس والجزائر، ولم تكن هناك مدينة كبيرة أخرى تنافسها على طول الساحل حتى الإسكندرية، فكانت يأتيها التجار من مالطا والبندقية وصقلية، بل إن موانئها كانت ترسو فيها حتى السفن الضخمة الغليونية، وقد نشأت فيها طبقة من كبار التجار وازدانت المدينة بالمساجد والمعاهد والمستشفيات وكانت ميادينها وشوارعها أجمل من ميادين وشوارع مدينة تونس، ولم تكن طرابلس تنافس مدينة تونس في عظمتها فحسب، بل حتى في ثروتها، وكان طرابلس آنذاك تحت ولاية حاكم محلي يلقب بأبي البركة.[73]

وفي عهد الأسرة القرمانلية موضوع دراستنا كانت هذه الحركة التجارية من أهم مصادر تمويل خزانة الولاية فنجدها أضحت من أهم عوامل التطور العمراني للمدينة، فقد أهتم الولاة ببناء وتوسيع المرافق التي تحتاجها التجارة في طرابلس كتوسيع الميناء وبناء الأرصفة اللازمة لنقل وتفريغ السفن، وكذلك بناء العديد من الأسواق العامة التي يتم فيها البيع والشراء وتوزيع السلع المجلوبة من الداخل والخارج، وقد احتوت طرابلس على نوعين من الأسواق، نوع ثابت قوامه مجموعة من الحوانيت

---

[69] الأنسة توللي، 1967م، ص236.
[70] خليفة محمد التليسي.1997م، ص149.
71 خليفة محمد التليسي.1997م، ص26.
72 التجاني، 1981م. ص246.
[73] شارل فيرو، 1994م، ص.ص74-75.

المتراصة مع بعضها البعض في شكل معماري موحد، وكان في العادة يخصص كل منها لنوع بعينه من السلع التجارية، أو يقوم على صناعة بعينها، مثل سوق الخردجية (البقالة العامة) وسوق الحلقة وسوق الفنيدقة الذين اشتهرا بصناعة وتجارة الأردية النسائية، وسوق القزدارة لصنع وبيع الأواني والمصنوعات النحاسية، وسوق الحدادة، وسوق النجارة، وسوق الخبز، وسوق الخضار، وسوق البنادق، وسوق النعال (البلاغجية) وسوق الصاغة الذي اشتهر بصناعة وبيع الحلي والمجوهرات، فضلاً عن الأسواق العامة مثل سوق الترك، وسوق الرباع الجديد والقديم.

وفضلاً عن الأسواق الدائمة فقد عرفت طرابلس نوعاً من الأسواق المؤقتة كتلك التي تقام أسبوعياً مثل سوق الثلاثاء، وسوق الجمعة، وسوق الأحد الذي كان مخصصاً لبيع نبات الحلفا، فضلاً عن أسواق أخرى كان تقام في ضواحي طرابلس كسوق الأحد والإثنين بتاجوراء، وهناك أسواق أخرى تقام موسمياً كتلك التي تقام أثناء موسم الحج، وأثناء موسم القوافل التي تنقل البضائع من وإلى إفريقيا.

ومن الأشياء التي تعكس ازدهار التجارة وتزيد من رواجها هو بناء الفنادق فقد تم بناء العديد منها داخل المدينة حيث كان يأوي إليها التجار والمسافرين ببضائعهم فتكون سكن لهم ومكان لتوزيع بضائعهم وعقد صفقاتهم في الوقت عينه.[74] وقد كانت تلك الفنادق من جانب تسهل عملية التبادل التجاري، ومن جانب أخر فهي تدر ربحاً وفيراً حيث كانت تلك تستأجر من قبل التجار والنزلاء بأسعار متعارف عليها في كل فترة بعينها، ولذلك نجد أن أفراد العائلة القرمانلية كانوا يحرصون على تملك بعض من تلك الفنادق، ومن أشهرهم اللالة حلومه زوجة علي باشا القرمانلي، فقد ذكرت الكاتبة الانجليزية الانسة توللي بأن كل الفنادق التي بنيت زمن علي باشا القرمانلي كانت اللالة حلومه هي من بنتها أو من اقترحت انشاؤها، وتذكر المؤلفة بأن أحد تلك الفنادق لايزال قائماً حتى زمن كتابة يومياتها ولم يكتمل بناؤه بعد.[75] أو أن الحكومة نفسها هي من تبني تلك الفنادق ليكون ريعها جزء من الدخل العام، كما حدث في بنغازي حيث قامت بلدية بنغازي ببناء الفندق الذي كان يعرف بفندق البلدية الحكومي وكان ذلك عام 1890م.[76]

وقد كانت التجارة تدر على خزينة الدولة دخلاً وفيراً وذلك عن طريق الضرائب التي كانت تفرض على أنواع البضائع المختلفة، حيث اعتمدت حكومة ولاية طرابلس كغيرها من الولايات العثمانية الأخرى اعتماداً مباشراً على الضرائب لسد نفقاتها، فضلاً عن احتكار بعض المصادر الاقتصادية في البلاد، وكان لهذه الضرائب نظاماً مالياً صارماً ودقيقاً، وقد أتسم في كثير من الأوقات بالظلم واثقال كاهل المواطن، ومن هذه الضرائب ما كان يعرف بضريبة الربح أو ضريبة التمتع وهي تلك الضريبة التي تفرض على التجارة والصناعة، وكانت تلك الضريبة في زيادة مستمرة، حيث بلغت نسبة 3% من الربح الصافي لأصحاب التجارة أو الحرف في عام 1860م، ثم تم رفعها الى نسبة 4% في عام 1878م، ثم بعد ذلك ارتفعت أيضاً لتصل إلى نسبة 5% وأصبحت بمثابة ضريبة الدخل المعروفة في وقتنا الحالي.[77]

ونظراً لما كان للتجارة من ربح وفير نرى كثير من أفراد العائلة القرمانلية يشتغلون في مجال التجارة بل وفي بعض الأحيان يحتكرون أنواع بعينها من البضائع كتجارة الحبوب، كما فعل يوسف باشا القرمانلي عندما اشتدت به الضائقة المالية التي أعقبت توقيعه على الاتفاقية التي تنص على تحريم

---

[74] تيسير بن موسى. 1988م. ص171.
[75] الأنسة توللي، 1967م، ص539.
[76] الموصلي، ياسين شهاب. الأوضاع الاقتصادية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي (1835-1911). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. 2006م. ص142.
[77] الخفيفي، الصالحين جبريل. النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب(1835-1912). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. 2000م. ص 56.

استرقاق المسيحيين وتلغي أعمال الغزو البحري وتجارة الرقيق، حيث نجده أصبح هو المحتكر الوحيد لهذه التجارة، فضلاً عن احتكار بعض الصناعات المحلية والمستوردة وشراء كل ما يلزم قصره وجيشه.[78]

2. النشاط البحري للأسطول الليبي:

لقد أهتم حكام طرابلس في الفترة القرمانلية أسوة بمن سبقوهم من الولاة العثمانيين بالأسطول البحري، وجعلوه من أهم مصادر الازدهار الاقتصادي في البلاد، وقد كان الأسطول في الفترة القرمانلية مظهراً من مظاهر القوة، وقد استطاع هؤلاء الحكام من خلاله أن يفرضوا سيادتهم على رقعة كبيرة من حوض البحر المتوسط، وأن يملوا شروطهم على كثير من الدول الأوروبية، وبفضل هذا الأسطول فقد حاولت تلك الدول وبشتى الطرق كسب ود حكام طرابلس، بقصد تامين سفنها وتجارتها في البحر المتوسط، ومن الظروف التي هيأت ذلك الموقع الاستراتيجي للدولة الليبية حيث أنها تمتلك ساحل طويل يشرف على البحر المتوسط يبلغ طوله حوالي 1900 كيلومتر.[79]

يرجع الفضل في تكوين الأسطول الليبي ووضع لبنته الأولى إلى درغوث باشا ثاني الولاة العثمانيين على ليبيا، حيث قام منذ توليه السلطة في ليبيا عام 1553م على العمل بكل جد على إنشاء أسطول بحري وتكوين قوة بحرية للمساهمة في الصراع الذي كان يسود البحر المتوسط آنذاك بين القوى الإسلامية وعلى رأسها الدولة العثمانية، والقوى المسيحية وعلى رأسها إسبانيا، ومن جهة أخرى ليقوم هذا الأسطول بمهمة الدفاع عن سواحل الولاية ضد هجمات الأعداء،[80] وقد كان درغوث وغيره من المغامرين المسلمين يرون في نشاطهم البحري مجالاً للجهاد في سبيل الله، ونصرة لإخوانهم المستضعفين من جور القوى المسيحية التي كانت مسيطرة على مياه البحر المتوسط، لاسيما إسبانيا التي قامت بطرد المسلمين من الأندلس واستولت على أملاكهم، وأجبرت من تبقى منهم على اعتناق المسيحية، ولم تكتف بذلك بل لاحقتهم إلى شمال إفريقيا في محاولة منها لتنصير هذا الجزء من العالم الإسلامي، وقد بدأت بتنفيذ مشروعها باحتلال طرابلس وأجزاء من تونس والجزائر، وقد كان المغامرين المسلمين أمثال درغوث والأخوين برباروسا[81] خير عون لشعوب المغرب الإسلامي ومساعدتهم في طرد الإسبان وإفشال مخططاتهم وتثبيت الدين الإسلامي في المنطقة، والدليل على ذلك استشهاد درغوث باشا نفسه في الحصار الذي فرضته البحرية الإسلامية بمشاركة الأسطول الليبي في محاولة القضاء على منظمة فرسان القديس يوحنا التي اتخذت من جزيرة مالطا قاعدة لها لمهاجمة السفن الإسلامية، وتهديد شواطئ دول المغرب الإسلامي.

وفي العهد القرمانلي نجد أن الولاة قد اهتموا اهتماماً كبيراً بالأسطول البحري ومنهم أحمد باشا القرمانلي مؤسس الدولة القرمانلية الذي قام بتجديده والعمل على زيادة عدد سفنه، فأعاد بذلك شهرته القديمة التي حظي بها أيام درغوث باشا، وأعلن الجهاد على السفن الأوروبية، فكسبت ليبيا بذلك شهرة

---

[78] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 231.

[79] محمد الهادي أبو عجيلة، 1997م، ص 130.

[80] محمد الهادي أبو عجيلة، 1997م، ص131.

[81] هما عروج بن أبي يوسف يعقوب التركي وأخوه خير الدين، كان عروج قبطان وأمير مسلم، وكان الأوروبيون قد لقّبوا عروج ريس بأسم عرّوج باربا روسا بسبب لحيته الحمراء، وبعد وفاة عروج ريس، استخدموا أيضا نفس الاسم لشقيقه الأصغر خيرالدين. أشتهر الاخوين بجهادهما البحري في شمال أفريقيا وسواحل البحر المتوسط إبان القرن السادس عشر الميلادي وعمل عروج بجانب أخيه خير الدين أثناء تواجده بالمغرب على إنقاذ عدد كبير من اللاجئين الأندلسيين الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية، وقد اتصلا بالسلطان العثماني سليم الأول وقاموا بإرسال الهدايا له وكانت هذه الخطوة فاتحة للعلاقات بينهم وبين الدولة العثمانية، وكان لعروج وأخيه خير الدين شأن كبير في سيطرة العثمانيين على شرق البحر المتوسط وعلى الجزائر وتبعيتها مع تونس للسلطنة العثمانية .استشهد عروج اثر معركة له مع الاسبان سنة 1518م .وأصبح أخوه الأصغر وخليفته خير الدين والياً على الجزائر ثم عينه السلطان سليمان القانوني كأول قائد عام لجميع الأساطيل البحرية للخلافة العثمانية عام 1534م.

وثروة كبيرة، وصار ذلك الأسطول مرهوب الجانب يلقي الرعب في قلوب القراصنة الأوروبيين بعد أن عاد من جديد للتصدي لغاراتهم على السواحل الليبية،[82] وقد حذا محمد القرمانلي حذو أبيه في قيامه بالاهتمام بالأسطول البحري اهتماماً بالغاً، حيث زاد من عدد سفنه وحرص كل الحرص على أن يبلغ ذلك الأسطول أقصى درجات التأهب في وجه الأساطيل الأوروبية، ونلاحظ أثر ذلك في حرص تلك الدول على كسب ود محمد باشا القرمانلي وعقد المزيد من الاتفاقيات التي من شانها حماية مصالحها وتجارتها البحرية وتأمين سفنها في البحر المتوسط.[83]

وعندما كان الصراع في البحر المتوسط على أشده بين الأسطول الليبي والدول المسيحية فلذلك كانت السفن التجارية الليبية تتجنب الرسو في الموانئ الأوروبية لاسيما أن كان قادتها مسلمين من أصل أوروبي، ولذلك فقد كانت السفن الإنجليزية والفرنسية وسفن البندقية وجنوا هي التي تقوم بنقل البضائع التجارية بين طرابلس وموانئ أوروبا، بينما تركز نشاط السفن التجارية الليبية على المتاجرة مع موانئ دول المغرب والمشرق الإسلامي، وقد كان عدداً كبيراً من السفن الأوروبية القائمة بالعلاقات التجارية بين طرابلس وأوروبا مستأجرة من قبل التجار الليبيين بما في ذلك الباشا نفسه، ولكن في أواخر العهد القرمانلي وبعد توقيع يوسف القرمانلي على قرارات منع أعمال الغزو البحري في سبيل أمن وسلامة طرق الملاحة البحرية، فقد استأنفت السفن الليبية نشاطها التجاري، وذلك باتصالها المباشر بموانئ أوروبا لنقل البضائع من وإلى موانئ ولاية طرابلس.[84]

مكونات الأسطول الليبي:

وقد كان الأسطول الليبي في العهد القرمانلي يتكون من جزأين أساسيين، جزء حربي وجزء تجاري، وكان يشرف على كلا الجزأين رئيس البحرية أو رئيس الأسطول، وهو المسؤول المباشر عليه كما أنه كان يقوم بوظيفة مدير الميناء، فكان من مهامه إعداد السفن وتجهيزها عند خروجها من الميناء سواءً لأعمال الغزو البحري أو للتجارة، وهو المسؤول أيضاً عن شحن البضائع المصدرة وتفريغ البضائع المستوردة، وتحصيل الضرائب الجمركية، ورسوم رسو السفن، ومن مهامه أيضاً الأشراف على دخول السفن ورسوها في الميناء، وكذلك صيانتها والمحافظة عليها، وحفظ الأمن والنظام على السفن وداخل الميناء، كما أنه يعد الرئيس المباشر لجميع قباطنة السفن الحربية والتجارية،[85] وقد كان هذا المنصب حساس للغاية نظراً لأهميته ولذلك فلا غرو أن نجد بعض من شغلوه كانوا من أصهار الباشا والمقربين إليه مثل الريس مراد ومصطفى قورجي، بل نجد أيضاً أن أبناء الحكام القرمانليين كانوا من المشرفين على هذا المجال، فالأنسة توللي تذكر لنا بأن حسن بك أكبر أبناء علي باشا القرمانلي كان هو المشرف على صناعة السفن الحربية في ميناء طرابلس، وأنه كان يملك عدداً كبير منها.[86]

وفيما يخص الجزء الحربي من الأسطول الليبي فكان هناك إلى جانب السفن البحرية التابعة للباشا أو الدولة نوع أخر من البحرية وهي البحرية الخاصة، حيث وجدت بعض العائلات التي اشتهرت بنشاطها البحري فكان لها سفنها الخاصة مع طواقمها وبحارتها، وكانت تلك السفن تزاول نشاطها بدون تدخل من الدولة في شؤونها، حيث جرت العادة أن تأخذ الدولة نسبة معينة من الغنائم التي ترجع بها السفن الخاصة حينما تعود منتصرة من غزواتها البحرية، وفي المقابل فإن الدولة تقوم بحماية هذه السفن

---

[82] محمد الهادي أبو عجيلة، 1997م، ص123- 124.
[83] محمد الهادي أبو عجيلة، 1997م، ص125.
[84] لشتيوي، نوري عمر. التجارة البحرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني(1835-1911م). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس 2005م. ص21.
85 نوري عمر الشتيوي2005 .م .ص22.
[86] الأنسة توللي، 1967م، ص166.



والدفاع عنها ضد الأعداء، [87] وكانت الغنائم التي تحصل عليها تلك السفن توزع على النحو التالي خمس تلك الغنائم كان من نصيب الحكومة، وكان ذلك الخمس يؤخذ قبل توزيع باقي الغنائم، فعند عودة السفينة ظافرة إلى الميناء لا يتم تحريك شيء من حمولتها قبل حضور مندوب الباشا لعمل الجرد اللازم لمحتوياتها، ثم يخرج المندوب الخمس الخاص بالحكومة، ويقوم بمصادرة كل غنائم السفينة من الذخائر والأسلحة، ولا يترك منها شيء إلا ما يكفي صاحب السفينة للدفاع عنها في الرحلة التالية، ومن ثم يتم تقسيم باقي الغنائم على أفراد الطاقم.

يذكر ميكاكي أن عزيمة وهمة يوسف القرمانلي، وعمله الدؤوب على تقوية وزيادة قوته البحرية جعلت من ولاية طرابلس قوة لا تقل أهمية عن تونس والجزائر، ولذلك نجد أن الدول الكبرى كانت تبذل كل ما في وسعها لإبقاء علاقاتها طيبة مع طرابلس، ومن أمثلة تلك الدول إسبانيا التي كانت دائماً تقابل بالترحاب مطالب الباشا، وكانت قد أرسلت مهندس متخصص في بناء السفن ومعه فريق من العمال المحترفين في ذلك، كما أنها سمحت لسفن الغزو الطرابلسية من اللجوء إلى موانيها وعمل الإصلاحات اللازمة لها إذا تطلب الأمر ذلك، وكذلك بريطانيا وفرنسا حيث كانت الحرب دائرة بين الدولتين وكانت كل منهما تسعى لكسب ود دول شمال إفريقيا بما فيها طرابلس، لتجد ملجأً آمن لسفنها عند الحاجة، كما يمكنها التزود بالمؤن اللازمة منها، مثلما حدث من قبل عندما ساعد يوسف باشا نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر.[88]

كما سبق وأن ذكرنا فإن النشاط البحري للأسطول الليبي كان أهم مصدر من مصادر تمويل خزانة الولاية، فإن هذا النشاط أيضا كان من أهم العوامل التي أثرت في التطور العمراني لمدينة طرابلس، سواء كان هذا التطور إيجابياً أو سلبياً، ففي الوقت الذي كان يدر فيه هذا النشاط الربح الوفير للعاملين بهذا المجال واصابتهم لجانب كبير من الثراء، هذا الثراء الذي مكنهم من المساهمة في التطور المعماري للمدينة، حيث قام بعضهم ببناء منازل فخمة أو فنادق أو محال تجارية، بل أن بعضهم قام بإنشاء مرافق عامة ذات طابع خيري بقصد نيل الاجر والثواب كما فعل الريس مصطفى قورجي رئيس البحرية الطرابلسية زمن يوسف باشا القرمانلي، الذي تمكن من جمع ثروة طائلة مكنته من إنشاء المسجد الذي عرف باسمه، والذي يعد من أجمل مساجد طرابلس من حيث التصميم والزخرفة، والذي فاق في عظمته المساجد التي شيدها ولاة طرابلس من قبل بما فيهم أحمد القرمانلي الذي ظل مسجدة أهم مسجد في المدينة حتى تم بناء مسجد مصطفى قورجي.

وقد كانت دائماً هناك علاقة طردية بين زيادة نشاط الأسطول الليبي والحاجة إلى تقوية وزيادة تحصينات مدينة طرابلس، فكلما زاد نشاط الأسطول البحري زادت معه الحاجة إلى الاهتمام بتحصينات المدينة والعمل على تقويتها وأضافه أبراج جديدة تأهباً لأي هجوم محتمل من قبل الأساطيل الأجنبية كما حصل زمن أغلب الولاة القرمانليين ومن أهمهم أحمد القرمانلي ويوسف القرمانلي، والعمل على توسيع الميناء وزيادة أرصفته، فقد قام أحمد باشا القرمانلي بتجديد أسوار طرابلس والعمل على إضافة أبراج جديدة، وصيانة وترميم الابراج القديمة، والعمل على تجديد المدافع القديمة، ومحاولة الحصول على مدافع جديدة ذات عيار أكبر من القسطنطينية وذلك تحسباً لأي هجوم من قبل الأسطول الفرنسي، أو محاولة ضرب المدينة بالقنابل، أو محاولة إنزال الجنود من ناحية البر،[89] وقد تكرر ذلك في فترة حكم يوسف باشا القرمانلي الذي أهتم بالناحية العمرانية لمدينة طرابلس، حيث قام بإنشاء العديد من المباني في المدينة، فضلاً عن قيامة بترميم وزيادة تحصيناتها، ففي شهر ديسمبر من عام 1795م قام بتحصين

---

[87] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص.27-26
[88] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص 137-138.
89. رودلفو ميكاكي، د.ت، ص44.

سور المدينة من الجهة الغربية بدايةً من باب البحر وصولاً إلى المقبرة المسيحية[90]، وقد نصب على ذلك السور ما يقارب السبعين مدفعاً جلها من البرونز، وذلك وفق خطته الرامية إلى توسيع نشاط أساطيله في أعمال الغزو البحري، ولكي يضمن لها قاعدة حصينة يمكن اللجوء إليها إذا اقتضت الحاجة، كما عمل على إنشاء عدة أبراج جديدة على هذا السور وعلى عدة نقاط أخرى خارج المدينة.[91]وقد أجدت تحصينات مدينة طرابلس وقوة مدافعها نفعاً كبيراً في عهد يوسف القرمانلي حيث يذكر ميكاكي أن حصانة أسوار طرابلس وقوة مدفعيتها كانت تحول دون اقتراب الأساطيل الأجنبية التي ترغب في ضرب المدينة بالقنابل، وبذلك تظل مدفعيتها غير ذات جدوى لبعدها عن المدينة، وهو في هذا السياق يسوق مثالاً على ذلك، فعندما قدم أسطول مملكة سردينيا للتفاوض مع الباشا وفرض شروطهم بالقوة وإلا فانهم سيقومون بضرب المدينة بالقنابل، لم يعر يوسف باشا تهديداتهم أي اهتمام، لثقته بقوة تحصيناته، غير أن ذلك الأسطول عمل على خطوة جريئة كان من شأنها أن يتسلل البحارة ليلاً إلى الميناء ويضرموا النيران في سفن الباشا الرابضة فيه، بعدما عجزوا عن ضرب المدينة بالقنابل،[92] وقد كان تجديد أسوار طرابلس وتسليحها يجري بشكل مستمر لاسيما إن كان هناك موارد مالية كافية لذلك، فبعد الحملات التي قام بها يوسف باشا في كل من برقة وفزان وجبل نفوسة ونجاحة في اخضاع قبائل تلك الأقاليم وحصوله جراء ذلك على غنائم وأسلاب كثيرة، عمل على تجديد أسوار المدينة وتسليحها وطلب مدافع جديدة من السويد والدنمارك، وحصل على وعد من القنصل الإنجليزي بإحضار عمال من مالطا للمشاركة في تجديد الأسوار، كما قام بفرض ضرائب باهظة على يهود طرابلس لأجراء تلك التحصينات.[93]

أما إذا تحدثنا عن التأثير السلبي للنشاط البحري للأسطول الليبي على عمارة مدينة طرابلس فإن ذلك النشاط قد عرض المدينة ولأكثر من مرة لهجمات الأساطيل الأجنبية التي كانت تقوم أحياناً بقصف المدينة بالقنابل لتملي شروطها على الولاة القرمانليين ولإرغامهم على التوقيع على معاهدات الصلح، أو تجديد بعضها للحد من نشاط الاسطول الليبي، أو كإجراء تأديبي لهؤلاء الحكام على خرق بحارتهم للمعاهدات المبرمة والتعدي على السفن التجارية للدول القوية مثل فرنسا وبريطانيا، حيث كانت تلك الهجمات تدمر أجزاء كبيرة من المدينة بما فيها القلعة مقر سكن الحكام القرمانليين.

ومع قرب نهاية الدولة القرمانلية بعدما أضمحل أسطولها ووهنت قوته، فقد عملت الدول الكبرى على تحجيم الأسطول الطرابلسي والحد من زيادة عدد قطعه، وكدليل على ذلك فقد نصت الاتفاقية التي أجبر يوسف باشا على توقيعها من قبل روزامبل قائد الأسطول الفرنسي على منع الباشا من زيادة قوته البحرية، وإن حدث أي تلف لإحدى سفنه الحالية فإنه يقوم بإصلاحها على نفس المواصفات الأولى من حيث الحجم والتسليح.[94]

3. المصادر الأخرى للثروة:

كانت هناك العديد من مصادر الثروة التي تساهم في الدخل العام لخزانة ولاية طرابلس، وكانت تلك المصادر تتفاوت من مصدر لأخر حسب أهميتها، فهناك مثلا الزراعة، والصناعة، والضرائب حيث كان على حكام المدن والأقاليم التابعة لباشا طرابلس دفع مبالغ مالية تقدر على حسب دخل كل مدينة أو إقليم، والهدايا والمبالغ المالية التي كانت تدفعها الدول الأجنبية لباشا طرابلس بقصد حماية تجارتها في البحر المتوسط، أو المبالغ التي كانت تلك الدول تضطر لدفعها عند تعين قناصل جدد

90. كوستانزيو برنيا، 1985م، ص243.
[91] أحمد النائب الأنصاري، د.ت، ص 312.
[92] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص188.
[93] رودلفو ميكاكي، د.ت، ص181.
[94] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 242.

بطرابلس أو تبديل قنصل بأخر، أو عند عقد اتفاقيات بينها وبين حكومة طرابلس أو تجديد تلك الاتفاقيات،[95] وكانت هناك مبالغ كبيرة تدخل إلى خزانة الدولة نتيجة منح امتياز احتكار الملاحات الليبية، كذلك التجارة والنشاط البحري للأسطول الليبي، وكان العامل الأخير هو أهم تلك المصادر على الاطلاق.

وإذا ما بحثنا في أوراق من كتبوا عن أحوال الفترة القرمانلية لتحديد قيمة الدخل العام لحكومة طرابلس فإننا نواجه صمت كبير فيما خلا كتابات القس كوستانزيو برنيا الذي أورد لنا معلومات شبة دقيقة عن دخل الولاية بالتفصيل من خلال تقرير قنصلي كان قد بعث به القنصل الفرنسي مير (Mure) إلى وزارة البحرية الفرنسية في أوائل شهر يوليو من عام 1820م، حيث يصف في ذاك التقرير الحالة الاقتصادية لولاية طرابلس في تلك الفترة مقدراً ذلك بالقرش الإسباني وهو العملة الأكثر تداولاً في طرابلس في ذلك الوقت، ويفصل التقرير دخل الولاية على النحو التالي:- مقدار ما تدره ملاحات زوارة في السنة من دخل انخفض عن السابق ليصل إلى 1000 قرش، بينما تدفع غدامس إلى الباشا 2000 قرش سنوياً، وتدفع مرزق 50.000 قرش، وأوجله 5000 قرش، وكانت تلك المدن تدفع تلك المبالغ نظير حريتها في تجارة غبار الذهب والرقيق وريش النعام وبيضه والتمور والعاج، وكان حاكم بنغازي ودرنة يدفع 50.000 قرش، بينما مصراته والزاوية وبقية المدن الساحلية فكانت تدفع ما مجموعه 150.000 قرش، وكان دخل مدينة طرابلس في حد ذاتها 50.000 قرش من دخل الجمرك و15.000 كضرائب على صناعة الخمور، ومبلغ 4000 قرش مجموع الضرائب التي تفرض على السكان اليهود كجزية، وكانت هناك مبالغ أخرى تدفعها بعض الدول الأجنبية بموجب الاتفاقيات المبرمة بينها وبين حكومة طرابلس لحماية تجارتها البحرية في البحر المتوسط فقد كانت الدنمارك تدفع 5000 قرش، والسويد 8000 قرش، وهولندا 5000 قرش.[96]

ويذكر لنا القس برنيا مصدراً أخر من مصادر تمويل الباشا حيث يذكر أن الأملاك الغير منقولة والمتمثلة في البيوت التي كانت تؤجر، والأسواق، والفنادق، والمنشآت التجارية الأخرى كانت تدر ريعاً يتم تقسيمة على كل أفراد العائلة القرمانلية بانتظام، وكان نصيب الباشا وحده من ريع هذه العقارات يساوي 4000 قرش، وكان هناك مبلغ أخر يتم تقديره بــ 100.000 قرش كغرامات على مخالفي القانون والمتأخرين عن سداد ما عليهم من ضرائب.[97]

وقد بلغ مجموع تلك المبالغ حوالي 549.000 قرش إسباني، ويبدوا أن ذلك المبلغ قد تقلص كثيراً لاسيما بعد إعفاء أغلب الدول الأوروبية من دفع ما عليها من مبالغ سنوية، وكذلك تعطيل عمل الأسطول الليبي وما كان يدره من دخل كبير نتيجة لنشاطه في البحر المتوسط بعد اتفاق الدول الأوروبية على محاربة النشاط البحري لأساطيل دول الشمال الإفريقي، وإلغاء استرقاق المسيحين الذي نص عليه مؤتمر فيينا في عام 1815م، ومؤتمر أكس لاشابيل عام 1818م، ومن المؤسف أن نعلم من خلال تقرير القنصل الفرنسي إذا صدق أن نفقات الباشا وحده كانت تساوي ثلث هذا المبلغ، تلك النفقات التي كانت تنفق على الباشا ونسائه وخدمه ، وكانت النساء تستهلك مبالغ طائلة في الهبات والهدايا والمجوهرات والعطور والملابس، ومبالغ أخرى تنفق بإسراف ليعم السلام الداخلي في القصر وقيام الالفة والانسجام بين اركانه.[98]

---

[95] عمر علي بن إسماعيل،1966م، ص 225.
[96] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص271-272.
[97] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص272.
[98] كوستانزيو برنيا، 1985م، ص272.

- الخاتمة:

من الواضح أن التطور العمراني لمدينة طرابلس قد تأثر كثيراً بالعوامل الجغرافية، والاقتصادية، والعسكرية، والاجتماعية. التي شهدتها المدينة إبان فترة حكم الأسرة القرمانلية، فقد كان الموقع الجغرافي سبباً في جعل المدينة حلقة وصل مهمة بين إفريقيا وأوروبا من جهة وبين شرق العالم الإسلامي وغربه من جهة أخرى، كما كان للازدهار الاقتصادي ورواج التجارة في فترات الاستقرار لاسيما في فترة حكم أحمد باشا ويوسف باشا القرمانلي أثره الواضح على عمران المدينة الذي أزدهر بشكل ملحوظ ولازالت عمائر طرابلس شاهده على ذلك إلى يومنا هذا.

ومن جهة أخرى فقد أثر نمو الأسطول الطرابلسي وازدياد قوته لكونه أحد الروافد المهمة لاقتصاد الولاية لما يدره من ربح وفير على خزانة الدولة التي كانت تصرف جزء منه على بناء المدينة وصيانة مرافقها وزيادة تحصيناتها، وعندما يحصل العكس من ضعف العامل الاقتصادي وضعف الأسطول، وكذلك وقت حدوث الأوبئة والمجاعات والحروب فان الجانب العمراني كان يتأثر بذلك إذ تقل الموارد وينشغل الولاة بتامين الحاجات الأساسية للولاية ويهملون البناء والتشييد.

وقد أثر العامل الاجتماعي أيضاً على الجانب العمراني للمدينة فبتنوع السكان بين عرب واتراك ويهود وأوروبيون تنوعت أحياء المدينة وأنعكس ذلك على البيئة العمرانية بها فضمت أماكن مختلفة للعبادة باختلاف ديانات ساكنيها، وباختلاف أذواقهم وأعرافهم.

- قائمة المراجع:

1. ابن حوقل. صورة الأرض، نقلاً عن نجم، محمد يوسف. عباس، احسان. ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات. دار ليبيا للنشر والتوزيع. بنغازي. 1968.
2. أبو زبيدة، أحلام، قريرة، عبد الرازق. مبنى القنصلية الأمريكية دراسة تاريخية للمبنى وللعلاقات الليبية الأمريكية، منشورات مشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة بإطرابلس، طرابلس. 2004م.
3. أبو عجيلة، محمد الهادي عبدالله. النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية (1711م-1835م) وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية. منشورات جامعة قاريونس. بنغازي. 1997م.
4. الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت.
5. بركات، مصطفى. الألقاب والوظائف العثمانية. دار غريب للطباعة والنشر. القاهرة. 2000م.
6. برنيا، كوستانزيو، طرابلس من 1510 الى 1850، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، مصراته، 1985م،
7. بن إسماعيل، عمر علي، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا، 1795-1835م مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1966م.
8. بن موسى، تيسير. المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني. الدار العربية للكتاب. طرابلس. 1988م.
9. التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن احمد. رحلة التجاني. الدار العربية للكتاب. ليبيا- تونس. 1981م.
10. التليسي، خليفة محمد. حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، طرابلس - تونس، 1997م.



11. توللي، الانسة، عشرة أعوام في طرابلس، ترجمه عبدالجليل الطاهر، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1967م.
12. الجميل، علي ميلاد. البيوت العربية الإسلامية بالمدينة القديمة طرابلس خلال العهد القرمانلي (1711-1835). أطروحة ماجستير. كلية الآداب والعلوم. جامعة مصراته. 2010م.
13. الخفيفي، الصالحين جبريل. النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب (1835-1912). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. 2000م.
14. الدجاني، أحمد صدقي. ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1971م.
15. رايت، لويس، وجوليا ماكليود، الحملات الامريكية على شمال افريقيا في القرن الثامن عشر 1799-1805م، تعريب محمد روحي البعلبكي، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت.
16. روسي، إيتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، 1991م.
17. لشتيوي، نوري عمر. التجارة البحرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1835-1911م). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس 2005م.
18. الشريف الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس. نزهة المشتاق في اختراق الافاق. المجلد الأول. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. 2002م.
19. غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب: علي الصادق حسنين، دار الجيل، دار الرواد، بيروت، 1973م.
20. فيرو، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994م.
21. كابوفين، جورجو. طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر. ترجمة عبد السلام مصطفى باش امام. منشورات مركز جهاد الليبيين. طرابلس. 1988م.
22. كاوبر، هـ. س. مرتفع الإلهات الجمال واستكشاف الهياكل الثلاثي في المواقع المغليثية في طرابلس. ترجمة أنيس زكي حسن. مكتبة الفرجاني. طرابلس. (د.ت).
23. الموصلي، ياسين شهاب. الأوضاع الاقتصادية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي (1835-1911). منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. طرابلس. 2006م.
24. ميكاكي، رود لفو، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت.
25. الوزان، أبو الحسن بن محمد، (ليون الإفريقي) وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية بيروت، 1983ف،